بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وعرّفان

لا يسعنا في هذا المقام، إلا أن نتوجه بخالص عبارات الشكر والتقدير والامتنان، إلى أستاذنا
الفاضل والمشرف؛ الدكتور (يحيى سعدوني)، الذي كان سنداً علمياً وداعماً حقيقياً لنا في مختلف
مراحل إعداد هذه المذكرة. فقد كان لتوجيهاته الرصينة، ونقده البناء، وصبره الكبير في المتابعة،
بالغ الأثر في صياغة هذا البحث الأكاديمي على النحو الذي نطمح إليه.

لم يكن إشرافه مجرد تقويم علمي، بل كان بمثابة بوصلة فكرية ساعدتنا على تجاوز العديد من
الصعوبات المنهجية والمعرفية.

وفي الأخير نتقدم إليه بجزيل الشكر والامتنان والاحترام، جزاه الله عنا خير الجزاء، ونتمنى له
التوفيق في مسيرته الأكاديمية والمهنية.

1 إهداء

إلى أمي الحبيبة، ينبوع الحنان، ونور قلبي، التي رافقتني بدعواتها الصادقة، وابتسامتها التي تبعث الأمل في مهما ثقّلت الأيام.

إلى أبي العزيز، الذي علّمني أنّ الطّموح لا سقف له، وإنّ التعب لا يُثمر إلاّ مجدا، شكرا لثقتك التي كانت دافعا لي في كلّ خطوة.

إلى زوجي الغالي، ورفيق دربي، وشريك نجاحي، الذي كان عوني وسندي في لحظات ضعفي، فحمل عني الكثير من الأعباء، ليبقى قلبي نابضا بالأمل والطّموح.

.وإخوتي، كنتم خير السند

لكم جميعا... أهدي فرحة هذا التّخرّج، فهي ثمرة حبّكم ودعمكم، ووسام فخر أضه على صدوركم قبل أن أضعها على كتفي.

لـونـجة.

2 إهداء

ما سلكنَا البدايات إِلَّا بتيسيره، وما بلغنا التَّهَيَّات إِلَّا بتوفيقه، وما حقَّقنا الغايات إِلَّا بفضلِه.

فالحمد لله الذي وفَّقني لتأمين هذه الخطوة في مسيرتي الدَّرَاسِيَّة.

إلى روح أبي الغالي، مصدر فخري وسندي وقدوتي، كنت أحلم أن تشهد فرحتي في هذا اليوم، وأن تُبارك لي بفرحك ودعواتك، رحلت بجسدك لكنَّ حبَّك ودعواتك وروحك مازالت ترافقني، رحمك الله وأسكنك فسيح جنانه، يا روجي.

إلى من سجدت لله تدعوه في سرِّها وجهرها، إلى من سهرت لتحمل عني تعبي، ومسحت بيديها دموعي، إلى أمي الحبيبة، فرحتي لا تكتمل إِلَّا برؤية دموع السَّعادة في عينيك، أسأل الله لك دوام الصَّحة والعافية.

إلى إخوتي الأعرءاء، كنتم خير السند، شكرا لوجودكم الدائم بجانبني، ولحبكم الذي يمنحني القوَّة، حفظكم الله ووفَّقكم.

إلى تلك الرُّوح الوفيَّة، والسند الذي لا يميل، إلى من كانت دوما العَضد الذي أرتكز عليه، إلى أختي الوحيدة والعزيزة، حفظك الله ورعاك.

إلى صديقاتي اللاتي جعلن هذه الرِّحلة أكثر متعة، وأقلَّ صعوبة، شكرا لكلِّ لحظة دعم، ولكلِّ كلمة مشجِّعة، ولكلِّ دَمعة حزن وفرح تشاركناها مع بعض، والدَّكریات الجميلة التي صنعناها مع.

وبعد كل هذا التعب والسهر، جاء اليسر بفضل الله، وبدعمكم، وهذا النجاح ليس لي وحدي، بل لكم جميعا، فقد كنتم سندي ونبضي في كلِّ لحظة، شكرا من القلب، وأتمنى أن أكون يوما مصدر فخركم كما كنتم مصدر قوَّتي.

.سيرين

مقدمة

يُعدّ الأدب من أبرز الوسائل التي يُجسّد من خلالها مضامين التجربة الإنسانية بكل تعقيداتها وتنوّعاتها، فالأدب لا يقتصر فقط على سرد الأحداث ووصف الشخصيات، بل يتجاوز هذا السياق المحدود إلى ما هو أعمق، فنجدّه يغوص في أعماق وأغوار النفس البشريّة، وي طرح قضايا وجوديّة واجتماعيّة وثقافيّة، متجذّرة في واقع الأفراد والمجتمعات. ومن بين هذه القضايا تحتل مسألة الهوية مكانة بارزة، إذ تتيح للأدب فضاءً رحباً، وأرضاً خصبة للتأمّل في مفاهيم الانتماء والاختلاف. واستناداً إلى هذا نجد مصطلح الهوية من أكثر المفاهيم إشكاليّة وتشعباً في الأوساط الأدبيّة المعاصرة، بحكم أنّه مدلول معاصر لم يكتسب سياقه الاجتماعي، والسياسي، والثقافي، بمعزل عن مفهومه الفلسفي إلّا قريباً. ويُرجع الكثير من المفكرين اليوم، تلك الصراعات في حقيقتها إلى صراع هويّات، تتنافس على فرض وجودها على غرار الأخريات. وفي ظلّ واقع مشحون بالصراعات السياسيّة، والتاريخية، والثقافيّة، تبرز مسألة الهوية كإحدى أكثر القضايا إلحاحاً في الفكر المعاصر ومثال ذلك القضية الفلسطينية التي أثبتت هذا الطرح، حيث أصبحت الهوية معركة وجود وليست مجرد انتماء، ووَجَدَ الفلسطيني نفسه عبر عقود من النكبة، والشّتات، والاحتلال، في مواجهة مستمرّة مع محاولات الاقتلاع والتهميش وطمس هويّته العربيّة الإسلاميّة، فكانت الكتابة أحد أبرز أشكال المقاومة الفكرية، فما كان للفلسطيني إلا الدفاع عن هويته، التي حاول الاحتلال تغييبها شيئاً فشيئاً، بمصادرة الاراضي، وتغيير العملة، وغيرها من الأساليب. فكان الأدب إحدى الوسائل المهمة للتعبير عن الهوية، ولعلّ أبرز الأصوات الأدبيّة التي فرضت حضورها ضمن الفنّ الروائي الكاتب (باسم خندقجي)، الذي استطاع من داخل أسوار السّجن العاتية أن يُبدع خطابات عميقة، ذات بُعد إنساني ووطني في وقت واحد، فتأتى روايته "قناع بلون السّماء" كواحدة من أبرز أعماله التي جمع فيها بين الجماليّة الفنيّة الروائيّة، وموضوع الهوية، والسردية المبنية على المتخيّل في الموضوع.

وكان السبب الذي دفعنا للخوض في هذا الموضوع، بالذات هو نقل الواقع المزري والمرير، والصراع الذي يعيشه الشعب الفلسطيني منذ عقود للحفاظ على ما تبقى من شتات هويته المسلوقة، فأنت هذه الرواية بالخصوص تصويرا وتخبيلا متعدد الأبعاد التاريخية، والثقافية، والإنسانية، والوجودية، وغيرها. ومن الأسباب الأخرى التي حثتنا على التطرق لهذا الموضوع والانغماس فيه هو عمق الفكرة لدى الكاتب، وأسلوبه المتميز في إثارة الموضوع. وبناءً على هذا ارتبنا طرح إشكالية تتلخص في جملة أسئلة أهمها:

- ما البنية السردية لمتخيل الهوية في الرواية؟
 - ما العناصر التي توكل عليها الكاتب في تجسيد موضوعه؟
 - ما العلاقات التي يُمليها الخطاب في الصراع الهوياتي؟
 - وإلى أي مدى توصل الكاتب إلى الدفاع عن هويته؟
 - كيف حوّر خندقجي التاريخ وضمّنه في روايته؟
- وبغية الوصول إلى الأجوبة عن هذه الاستفسارات، تبيننا خطة بحث وافية تتألف من مقدمة، وفصلين، وخاتمة. جاء الفصل الأول موسوما بعنوان "مفاهيم في المتخيل والهوية"، والذي تناولنا فيه مجموعة المباحث، جاءت على النحو الآتي: المبحث الأول، تطرقنا فيه إلى مفاهيم في مصطلح المتخيل، ثم تناولنا علاقة المتخيل بالواقعي، وفي الأخير، أشرنا إلى أنواع المتخيلات الروائية. أما المبحث الثاني فجاء موسوما بعنوان الهوية المصطلح والمفهوم، حيث أشرنا فيه أولاً إلى التعريفات اللغوية للهوية، ثم تطرقنا إلى مفاهيم الهوية في العديد من العلوم كالفلسفة، علم النفس، التاريخ، وعلم الاجتماع، وارتباط الهوية بالوجود. وفي الأخير ختمنا الفصل بالخوض في أبعاد الهوية.

أمّا الفصل الثّاني فقد جاء موسوماً بعنوان "تجليات صراع الهويّة"، والذي قُسم بدوره إلى مجموعة من المباحث، فناقشنا في المبحث الأول صراع الهويّة مع الذات نفسها؛ حيث تعمّقنا في أغوار النّفس تحت نطاق انفصام الذات بين الهويّة الأصليّة والمكتسبة. أمّا المبحث الثاني فقد تناولنا فيه ملامح صراع الذات مع الآخر؛ والعلاقات التي تجمع بين الشّخصيّات. وثالثاً تطرّقنا إلى ملامح نزاع الهويّة بصفة عامّة، بعيداً عن محدوديّة الأنا والآخر. وفي الأخير أشرنا إلى عنصر هوية الرواية والسارد. وأنهيّا بحثنا بخاتمة ضمّنا فيها أهمّ النتائج التي توصلنا إليها من خلال بحثنا هذا.

اعتمدنا في بحثنا هذا المنهج الوصفي، باعتباره الأنسب لمقاربة الظّاهرة الأدبية، لما يُوفّره، من أدوات إجرائيّة تساعد على فهم الظّواهر وتحليلها، ويُتيح رصد العلاقات بين عناصر البحث المختلفة. كما استندنا أيضاً على المنهج النّقدي البنيوي، الذي ينظر في بنيات النّص المتعدّدة وكذا في العلاقات التي تربط بعضها ببعض، في إطار البنية السردية العامّة للخطاب. بالإضافة إلى استعانتنا بالمنهج النّقدي الموضوعاتي الذي يدرس التّرّد المستمر لفكرة ما أو صورة ما، كفكرة الهويّة، فيما يُشبه لازمة أساسية وجوهريّة، بما يسمح لعالم الرّواية بالتشكّل والامتداد.

استندنا في دراستنا إلى مجموعة من المراجع التي يسيّرت عمليّة بحثنا وأسهمت في إثراء محتواه أهمّها: كتاب "قضايا فكريّة معاصرة، مشارف المعنى واللامعنى"، (سعيد أراق)، وكتاب فضاء المتخيّل (لحسين خمري)، كتاب "مفهوم الهويّة" (لجليلة مليح الواكدي)، وكتاب المتخيّل المختلف (لمحمّد معتصم). بالإضافة إلى عدد من المراجع الأخرى، المتعلّقة بموضوعنا أو بمباحث معيّنة منه.

أمّا بالنّسبة للصّعوبات التي اعترضتنا في عمليّة بحثنا هذا، فكانت أغلبها مرتبطة بصعوبة الوصول إلى بعض المراجع، وخاصة التطبيقية منها، التي كانت غير متوفّرة لا ورقياً ولا رقمياً،

مقدمة

وكذلك طبيعة الموضوع في حدّ ذاته الذي يتّسم باتّصاله بالفكر والفلسفة، حيث يحتاج إلى كثير من التّحليل العميق وسعة الاطّلاع. بالإضافة إلى ضيق الوقت مقارنةً بأهمية الموضوع وجديّة البحث فيه.

وفي ختام هذا البحث لا يسعنا إلا التّوجّه بجزيل الشّكر، والتّقدير، والعرفان، لأستاذنا الفاضل الدّكتور (يحيى سعدوني) الذي لم يبخل علينا بتوجيهاته القيّمة وملاحظاته البناءة، وتصحيحاته الدّائمة، كما نتقدّم بجزيل الشّكر إلى كلّ من أسهم في إنجاز عملنا هذا. والله وليّ التّفويض.

الفصل الأول: مفاهيم في المتخيّل والهويّة

I. الخيال / المصطلح والمفهوم

1. ضبط المفاهيم المرتبطة بالخيال.
2. مفاهيم لمصطلح المتخيّل.
3. علاقة المتخيّل بالواقعي.
4. أنواع المتخيّلات الروائية.

II. الهويّة / المصطلح والمفهوم.

1. التعريفات اللغوية للهويّة.
2. المفاهيم الاصطلاحية للهويّة.
3. الأبعاد الأساسية للهويّة.

1. الخيال / المصطلح والمفهوم.

1. ضبط المفاهيم المرتبطة بالخيال.

يُعدّ مصطلح الخيال، ومشتقاته كالتخييل، والمتخيل، والتّخيل، من المصطلحات التي اهتمّ بها الدّارسون كونها تحمل أهمّية بالغة في الإبداعات الفنّية بشكل عامّ، وفي الأعمال الرّوائية بصورة أوسع، وانطلاقاً من هذا نحاول الإحاطة بمفهومها. ويُعتبر الخيال من القدرات الأساسيّة التي يمتلكها الإنسان، فهو يساعده على تجاوز الواقع وتصور أشياء غير موجودة، وانطلاقاً منه ظهرت مصطلحات أخرة قريبة له مثل: "التّخيل"، "التّخييل"، "المتخيل"، ولكلّ واحد منهم معنى خاص.

أ. الخيال:

«هو تلمّس العلاقات الكثيرة القائمة بين الأشياء، فيختار، ويجمع، ويشكّل، ويصوغ، ويربط كلّ ذلك بخياله وحسّه، فيصنع من الأشياء العاديّة ومن المعاني المجرّدة شيئاً جديداً مستقلاً عن عناصر التي يتكوّن منها، فيبعث فينا أحاسيس تختلف كلّ الاختلاف عن وقع هذه الأشياء على نفوسنا في الواقع»¹. فالخيال بهذا يُعدّ عنصراً أساسياً وقوّة إبداعية لا سيما في الفنّ والأدب، حيث يعتمد عليه الكاتب أو المبدع باعتباره يخلق عوالم غير موجودة في الواقع، ويعيد تشكيلها من جديد، ومن هنا يمنح الأدب، وخصوصاً الرّواية، تلك القوّة. فهو يجمع بين الغريب والمألوف وبين الواقع واللاواقع، في إطار سرديّ جذاب يدفع القارئ إلى الغوص في جوّ مُفعم بالدهشة والتشويق.

¹ - فاطمة سعيد أحمد حمدان، مفهوم الخيال ووظيفته في النّقد القديم والبلاغة، رسالة دكتوراه في النّقد والبلاغة، جامعة أمّ القرى، السّعوديّة، 1989، ص339.

ب. التّخيل:

«هو تحريف القول الصادق عن العادة، والحاقه بالشيء، تستأنس النفس به، فربما أفاد التصديق والتّخيل، وربما شغل التّخيل عن الالتفات به»¹. أي أنّ التّخيل لا يُقدّم الواقع كما هو، بل يُغيّره أو يُحرّفه بطريقة فنية وخيالية، وهذا التّحريف يحتمل تغييرا للقول الصادق، حيث يُقرن بما تميل إليه النفس ويكون قويًا. فيصدّقه المتلقّي دون أن يُمعّن تفكيره في صدقه من عدمه، فينغمس بهذا في صورته الخياليّة دون أن يسأل هل هذا حقيقي؟

ج. التّخيل:

يرى (جابر عصفور) أنّ التّخيل «هو تلك القوّة التي تتوسّط التّصوّر السيكولوجي القديم ما بين الحسّ والعقل، وتُمارس نشاطها في مادّة التي تتطبع في الدّهن مع عمليّة الإدراك الحسيّ»². إذا التّخيل هو قوّة نفسية بين الحسّ والعقل، فالتّخيل عند (جابر عصفور) وسيط بين ما نراه وما نُحسّه، وبين ما نفكر به ونتأمّله، فهو يُحوّل كلّ ما ندركه بحواسنا إلى صور ذهنيّة ليتمكّن العقل بعد ذلك من فهمها والتّفكير فيها.

وانطلاقًا ممّا قدّمناه يتبيّن لنا الفرق بين "الخيال"، "التّخيل"، و "التّخيل"، باعتبارهم مفاهيم مترابطة تختلف فقط في المعنى، فالتّخيل هو القوّة الذهنية التي تحوّل الإدراك الحسيّ إلى صور ذهنيّة، أما الخيال فيُعد تلك الصّورة أو الفكرة النّاتجة عن هذا التّخيل، أي الصّور والأفكار التي

¹ - عثمان موافي، في نظريّة الأدب (من قضايا الشّعور والنثر في النّقد العربي)، ج1، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر، 2007، ص145.

² - جابر عصفور، الصورة الفنيّة في التّراث النّقدي والبلاغي عند العرب، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1992، ص17.

يُشكّلها الذّهن، في حين أنّ التّخيل هو تلك الصّورة المستخدمة في السّياق الفنّي لإيهام المتلقّي لغرض لفت وجذب انتباهه.

2. مفاهيم لمصطلح المتخيل:

يُعدّ مصطلح المتخيل، من المصطلحات التي اهتم بها الدّارسون، كونه يحمل أهميّة بالغة خاصة في الأعمال الروائيّة، ومن هنا نرى أن مصطلح المتخيل من المصطلحات التي تعدّد مفهوماً من معجم لآخر، فنجد (ابن منظور) مثلاً أشار إليه في "لسان العرب" فقال: «حَالَ الشّيء حَيْلاً وَخَيْلاً وَحَالاً وَخَيْلاناً وَمَحَالَةً، وَمَخِيلَةً، وَخَيْلولةً ظَنُّهُ، وفي مثل من يسمع يَخِلُّ، أي يظنُّ، وهو من باب ظنّ وأخواتها»¹.

أمّا في معجم "أساس البلاغة"، (لزمخشري) ف جاء: «حَيْلٌ فِيهِ حَيْلَاءٌ وَمَخِيلَةٌ وَهُوَ يَمْشِي الحَيْلَاءُ وَإِيَاكَ وَالْمَخِيلَةَ، وإِسْبَالِ الأَزَارِ، وَاحْتَالَ فِي مَشِيهِ وَتَخَيْلٌ»². وأيضاً نستحضر مفهوم التّخيل في "المعجم الوسيط"، (لإبراهيم مصطفى) الذي عرّفه على أنه: «حَيْلَ الرَّجُلِ كَثُرَتْ حَيْلانَ جَسَدِهِ مَخِيلٌ وَمَخُولٌ وَمَخِيُولٌ»³. فالمعنى اللغوي للمتخيل عند علماء اللّغة القدامى له عدّة معانٍ والتي تكمن في: الوهم، الظّن، الشّك.

¹ - أبو الفضل جمال الدّين ابن منظور، لسان العرب، مادة (خ، ي، ل)، دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1994، ص1304.

² - أبو القاسم جار الله محمود عمر بن أحمد الزّمخشري، أساس البلاغة، ج1، مادة (خ، ي، ل)، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، لبنان، 1998، ص274.

³ - إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (خ، ي، ل)، مكتبة الشّروق الدّولية، ط4، القاهرة، 2004، ص266.

أما في المفاهيم الاصطلاحية، فإنّ المتخيل هو قدرة العقل البشري على خلق صور وأفكار لا وجود لها في الواقع، بل تتبع من خيالنا، هذه القدرة تسمح لنا بتصوّر أشياء لم نعرفها من قبل، فهو ليس مجرد هروب من الواقع بل هو أداة حيويّة يُعيد بها الإنسان ترتيب صورته وأفكاره، وخلق عوالم أخرى جديدة. وهذا ما أشار إليه (حسين خمري) في كتابه "فضاء المتخيل" حيث يقول أنّ التّخيل هو «بناء ذهني أي إنتاج فكري بالدرجة الأولى وليس إنتاجا ماديا»¹، وهذا يعني أنّ كلمة التّخيل تُستعمل للدلالة على الانتاج الفكري الذي يكوّنه الكاتب أو الرّوائي، أو يدور في ذهن ومُخيّلة الإنسان العادي وهذا الانتاج يكون فكريًا بالدرجة الأولى، وبعيدا عن المادّية، أي لا يكون ملموسا.

أمّا (يوسف الإدريسي) فقد عزّفه كالتالي: «استُعيرت كلمة (imagination) من الكلمة اللاتينية (imaginarius) سنة 1480، ودلّت على المعطيات الذهنيّة التي لا تتطابق مع معطيات الواقع المادي»². والمقصود بهذا هو أنّ المتخيل لا يعني مجرد إعادة إنتاج الواقع في الدّهن، بل هو نشاط ذهني مستقلّ يُنتج صوراً وأفكاراً قد لا يكون لها وجود في العالم المادي، كون أنّ العقل البشري لا يكتفي بما يستقبله من الواقع، بل يُعيد تشكيله وابتدع عوالم قد تكون ممكنة أو خفيّة.

نستخلص من هذين المفهومين أنّ المتخيل هو بناء ذهني نابع من الفكر، يتجاوز حقول الواقع المادّي، لكنّه في الوقت نفسه يبني على معطيات ذهنيّة قد تُستمدّ جزئيًا من الواقع. فهو إنتاج فكريّ خالص من جهة وأيضاً تعبير عن واقع مُعاد تشكيله في الدّهن من جهة أخرى.

أمّا (كولرج Coleridge) فهو أيضاً تطرّق إلى مصطلح المتخيل وربطه بالخيال، وهذا ما يظهر في قوله: «إنني أعتبر الخيال إذن إمّا أوليا أو ثانويا، فالخيال الأول هو في رأيي القوّة الحيويّة

¹ - حسين خمري، فضاء المتخيل، منشورات وزارة الثقافة في الجمهوريّة العربيّة السّوريّة، دمشق، 2001، ص39.

² - يوسف الإدريسي، الخيال والمتخيل في الفلسفة والنّقد الحديثين، مطبعة النّجاح الجديدة، ط1، 2005، ص27.

أو الأولوية التي تجعل الإدراك الإنساني ممكناً، وهو تكرار في العقل المتناهي لعملية الخلق الخالدة في الأنا المطلقة، أما الخيال الثانوي فهو في عرفي صدى للخيال الأولي، غير أنه يوجد مع الإرادة الواعية»¹. ويظهر جلياً من هذا القول أنّ (كولرج Coleridge) في تفريقه بين الخيال الأولي والثانوي قد ربط الأول بالقوة التي جعلنا ندرك العالم من خلال العقل، أما الثاني فربطه بالأفكار التي تتشكل وتتكوّن في أذهاننا، بناءً على تجاربنا ومدركاتنا، وإرادتنا الواعية.

وفي الأخير يُمكننا أن نُلخّص كلّ هذه المفاهيم في: أنّ الخيال سواءً كان أولياً أو ثانوياً يُعتبر عملية ذهنية تُنتج تصوّرات وأفكاراً لا تتطابق مع الواقع الماديّ، وهذا يتوافق مع المفهومين السابقين اللذين يؤكّدان على أنّ الخيال هو إنتاج فكريّ بالدرجة الأولى، وأنّه ينتج معطيات ذهنية لا تتطابق مع الواقع الماديّ.

أما المتخيل في النص الأدبي، وداخل العمل الروائي خاصة فيعتبر «عملية إيهام موجهة تهدف إلى إثارة مقصودة والعملية تبدأ بالصورة المتخيلة التي تنطوي عليها القصصية والتي تنطوي في ذاتها على معطيات بينها وبين الإثارة الموجزة علاقة الإثارة الموحية، وتحدث العملية فعلها عندما تستدعي خبرات المتلقي المختزنة، والمتجانسة مع معطيات الصورة المخيلة، فيتم الربط على مستوى اللاوعي من المتلقي بين الخبرات المختزنة، والصور المتخيلة فتحدث الإثارة المقصودة، ويلج المتلقي إلى عوالم الإيهام المرجو، فيستجيب لغاية مقصودة سلفاً»². بكل بساطة توضح لنا من هذه المقولة دور المتخيل في النص الأدبي، وخاصة في الرواية. فالمتخيل لا يأتي عبثاً بل يستعمل بشكل مقصود

¹ - محمّد معتصم، المتخيل المختلف (دراسة أولية في الرواية العربية المعاصرة)، دار لامان، ط1، الزيات، 1435هـ/2014م، ص48.

² - آمنة بلعلّ، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط2، 2000، ص58.

لإثارة القارئ، ودفعه للتفاعل مع النص أو مع الرواية، تنطلق هذه العملية من الصورة المتخيلة التي تتضمن قصدية واضحة.

حيث تكون تلك الصورة عبارة عن معطيات وإشارات موحية، تجذب المتلقي وتثيره ولا يتحقق فعل المتخيل إلا حين يستدعي المتلقي خبراته المخترنة والمتجانسة مع هذه المعطيات، فينشأ بذلك ربط على مستوى اللاوعي بين التجربة الداخلية للقارئ والصورة المقدمة، سواء كان في النص أو الرواية. وأثناء هذه الآلية يحدث المتخيل تأثيره ويُدخل القارئ في حالة الإيهام الفني ويتجاوب معه ويستجيب لغايته.

وانطلاقاً من هذا، يتبين أن المتخيل في الرواية وسيلة يشترك فيها القارئ لبناء معناه وإثارة خياله، وفق متطلبات الموضوع والتصورات المرتبطة كذلك بالجوانب السردية في عناصرها المختلفة. كما أن «عملية الإبداع والخلق وطيدة الصلة بالمتخيل الذي تصدر عنه، ولهذا الأخير دور كبير في إدراك المعرفة الجماعية للتصوص، ومن ثم تأويلها وفتح مفاتيحها وفتح أسرارها وتذوق أسرارها. ولقد أدرك الأدباء منذ القديم أهمية الخيال أو المتخيل في عملية الخلق الأدبي»¹. ومن هذه المقولة يتبين لنا أنّ المتخيل في النص الأدبي ليس فقط عنصراً تجميلاً، بل هو روح النص وجوهره، وذلك لما يحمله من دور كبير في بناء النص وإبداعه من خلال إنتاجه للمعنى. فهو يمنح للقارئ إمكانية فهم المعاني الخفية وتأويل النص وتذوق جماله.

¹ - فايضة بن خليفة، مصطلحات الخطاب والمتخيل عند محمد لطفي اليوسفي، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرياح، ورقلة، 2001-2002، ص156.

3. علاقة المتخيل بالواقعي:

تعد العلاقة بين المتخيل والواقعي من القضايا الفكرية التي جذبت انتباه الكثير من الناس عبر العصور، بحكم أنه لا ينفصل عن الواقع بل يتشابك معه في علاقة تداخل. وتبدأ علاقة المتخيل بالواقع باعتبار أنّ «الواقع معطى حضوري يمكن أن يدرك بالحس وتلمس آثاره بالملاحظة العينية في حين أنّ المتخيل بناء ذهني، خفي لا يدرك إلا بإعمال الفكر والنظر»¹. وهنا يبرز لنا الفرق الجوهرى بين الواقع والمتخيل. فالواقع ما هو موجود ويعطى لنا مباشرة وندرکه بحواسنا ونلاحظ آثاره، وهذه كلها عناصر واقعية.

في مقابل هذا نجد المتخيل بناء ذهنيًا، لا يرى ولا يلمس مباشرة بل يتكون في العقل عبر عملية التفكير والتأمل والتصور، فهو نتاج لما نخلقه في أذهاننا. والمتخيل «يعيد تشكيل بنى الواقع، أي إعادة صياغته وتشكيله، وبهذا فإن المتخيل يأخذ من الواقع مادة قبل أن يأخذ منه صورة وشكلا. والمتخيل من جهة أخرى يمثل جانبًا من جوانب الواقع وأحد مكوناته. فالمتخيل برغم كونه مكونًا من مكونات الواقع يؤثر فيه ويحدث خلخلة في بنياته»². فالمتخيل بهذا لا ينفصل عن الواقع بل ينشأ منه ويؤثر فيه في الوقت نفسه، وهذه المقولة توضّح مدى ارتباطها بالمتخيل لا ينشأ من فراغ بل يستمد مادته من الواقع، كما أنّه ليس فقط انعكاسًا له، بل وجزء منه.

¹ - حسين خمري، فضاء المتخيل، ص 40.

² - المرجع نفسه، ص 51.

ويرى (عبد الحميد يونس) أنّ المتخيل يتغذى من الواقع وهو مصدره الوحيد ويُلغى الإبداع مع الإبقاء على الصنعة إذ يقول: إنّ المُتَقَنَ مهما أُغرب في الخيال فإنّه يستمد عناصره ووحداته جميعا من الواقع أو من الممكن¹. تؤكد هذه المقولة على أنّ الخيال مهما بدى غريبا أو بعيدا عن الواقع فإنّ عناصره تكون مستمدة من الواقع، أو مما يمكن أن يحدث، فمثلا يمكننا أن نجد أيّ كاتب أو روائي بارع يخلق عوالم خيالية، لكنّه في الرواية لا يخرج عن حدود الممكن أو عن عناصره الموجودة في الواقع. ولا ينبغي أن نربط الخيال الإبداعي بالوهم لأنّ هذا الأخير لا يستند إلى المعقول والممكن، فهو بالأحرى عبث ولا مبالاة.

كلّما كان النصّ السردى ممزوجا بالخيال كلّما اكتسب أدبيّة أكثر خاصّة إذا ما استند إلى الواقع. «إنّ ما يميّز الأدب هو وقوفه على الحقيقة والواقع لخلق عالم متخيّل ينبهر به القارئ، فالمتخيّل يُحيل للواقع، والواقع يُحيل إلى ذاته»². الأدب يستمد مادّته من الواقع ولا يمكن أن ينفصل عنه فهو انعكاس له، لكن ما يميّزه هو قدرته على تحويل هذا الواقع إلى عالم متخيّل، وبهذا نجده يُبهر القارئ بما يحمله من رموز تتجاوز حدود المألوف.

وفي الأخير يتبيّن لنا من خلال تحليلنا لعلاقة المتخيّل بالواقع أنّ العلاقة بينهما هي علاقة تكامل وترابط، لا تناقض وانفصال؛ باعتبار أنّ المتخيّل لا ينشأ من فراغ بل يستمدّ وجوده من الواقع، سواء كان هذا الأخير مادّيّا ملموسا، أو معنويّا محسوسا.

4. أنواع المتخيّلات الروائية:

¹ - مرشد أحمد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2005، ص23.

² - حسن خمري، فضاء الرواية والمتخيّل (مقاربات في الرواية)، منشورات الأخلاق، ط1، 2002، ص43، 44.

يُعدّ المتخيل أحد المفاهيم المركزيّة في الأدب، كونه ليس مجرد زينة لغويّة، أو ضرباً فنّيّاً يُحقّق جماليّة للنصّ الأدبي، بل هو تعبير عميق عن المشاعر الإنسانيّة بكلّ أشكالها وتبايناتها، انطلاقاً من هذا نجد أنّ المتخيل لا يأتي على شاكلة واحدة، وإنّما يأتي ضمن ضروب مختلفة تتباين بحسب نظرة الإنسان وظروفه، ومن هنا يمكننا الحديث عن أنواع مختلفة للمتخيل نجد منها:

أ. متخيل المعتقل:

يُعدّ مصطلح "متخيل المعتقل" تصويراً رمزياً وواقعياً لواقع المعتقلات، فنجد الكثير من الأدباء والرّوائيين والشّعراء خاضوا في هذا الموضوع ناقلين تجربة السّجن أو المعتقل من كلّ نواحيها المادّية والمعنويّة الخالصة، فنجد حضوراً قوياً لموضوع الاعتقال، بداية «من الشعر العربي لكن من منظور مختلف عن المنظور الجديد الذي تناولته الرّواية العربيّة في الشعر العربي، حيث اعتمد الشّاعر على السّجن لإثارة الدّكريات والأشجان، فجاء شعر الغزل أكثر منه رقّة كما في قصائد أبو فراس الحّمّداني»¹.

وكان لموضوع الاعتقال حضور بارز في الرّواية الحديثة، انطلاقاً من تصوير صراع الحرّيات والقمع بين المعتقل والسّلطة، وغالباً ما يكون هذا النوع من الرّوايات كشفاً صريحاً للجرائم والانتهاكات الإنسانيّة والنّفسيّة، التي تُطبّق على السّجّاء من غير وجه حق، «فحرمان المواطنين من حقّهم في الحرّية يستتبع فقدانهم من حقّهم في التّعبير، والتّفكير، بطريقة مختلفة للسائد، أي حرمانهم من حقّهم في النّقد والرّؤية المخالفة والمغايرة»². ومن الرّوايات التي خاضت في هذا السّياق نجد رواية ستائر العتمة للرّوائي (وليد الهودلي) التي تحدّث فيها عن المعتقلات الصّهيونيّة والحرب

¹ - محمّد معتصم، المتخيل المختلف، ص 19.

² - المرجع نفسه، ص 19.

النفسية القاهرة التي كانت تُطبّق على المُعتقلين، وأظهر وسائل جديدة كانت بعيدة تماما عن التّعنيف الجسدي لكنّها كانت أقرب لإيصال إنسان إلى الجنون والدمار النفسي الشّامل.

نجد أيضا رواية يسمعون حسيها (لأيمن العتوم) التي تُعدّ من أكثر روايات أدب السّجون والمعقلات دمويّة، حيث صوّر الرّوائي فظاعة السّجون السّوريّة وسوداويّة الجرائم التي تُرتكب فيها بحق المعتقلين بعيدا عن أيّ معنى للإنسانيّة.

ب. متخيل الظل:

يُعدّ مصطلح "متخيل الظل" مبدأ تبنّاه الكثير من الرّوائيّون في كتاباتهم، كونه يقوم بتظليل الشّخصيّات، والأحداث، والوقائع، ولا يطرحها بشكل مباشر وصريح داخل الرّواية لكن في نفس الوقت يكون لها تأثير ظاهر وعميق داخل الرّواية. وقد «استقّي هذا المصطلح ممّا يتداول في الحياة العامّة السياسيّة تحت مسمّى "حكومة الظل"، وهي الأيدي الخفيّة المتحكّمة في دفعة السياسة والاقتصاد، وهي المساواة عن كلّ الولايات التي يُعاني منها الإنسان المقهور البسيط الذي يقع أسفل السلم الاجتماعي»¹.

ج. متخيل المأساة:

ارتبطت المأساة بحياة الانسان منذ بداية وجوده، فهي ذلك الشّعور العميق بالحزن الذي يلازم النفس البشريّة، إثر وقوع حدث أليم، وهذا ما أشار إليه (السعيد بخليلي) حيث يقول: «المأساة هي أحداث تراجيدية من أحداث الحياة، تصيب المرء من حين إلى آخر، أمّا المأساوي يعني الأسى والحزن الوجودي وليس الأخلاقي، أي ليس تقديرا شخصا لما يصيب الإنسان من أحداث، فلا

¹ - محمّد معتصم، المتخيل المختلف، ص 201.

تستحق من البعض الأسي، وتستوجب الحزن فالحزن الوجودي يتعدى المسائل الشخصية إلى تلك المتعلقة بالوجود كله، بعيدا عن الأحزان الظرفية التي لا تبصر من الأشياء إلا جانبا واحدا¹، ومن هنا نلتبس الفرق بين المأساة والمأساوي، باعتبار، أن المأساة هي الحالة الشعورية التي يحس بها الإنسان من فشل، وحزن، وفقد. أما المأساوي فهو يرتبط بالوجود.

II. الهوية / المصطلح والمفهوم.

1. التعريفات اللغوية للهوية:

قبل أن نتناول مفهوم الهوية، يجدر بنا الإشارة إلى مسألة جوهرية وهي أن مصطلح "الهوية" لا يكاد يُذكر في المعاجم اللغوية العربية القديمة، كونه مصطلح حديث النشأة تطوّر بفضل منابع فكرية، خاصة في ميادين (الفلسفة، علم الاجتماع، وعلم النفس) وهنا سنحاول الإشارة إلى بعض الاجتهادات المقدّمة في ضبط مفهومها اللغوي. وعند استقرائنا لبعض التعريفات المحددة للهوية، تبين لنا أنها لا تستقر في اللغة فحسب، بل تمتدّ إلى مفاهيم أبعدها، وبالتالي تُخرجنا إلى قضايا فلسفية واجتماعية وغيرها، وذلك لصعوبة الإمساك بتعريف لغوي دقيق.

أ. تعريفاتها عند العرب:

وردت لفظة الهوية في "لسان العرب" (لابن منظور) «من الفعل هَوَى، وهَوَى بالفتح، يَهْوَى هُويًا وهَوِيَانًا، وانْهَوَى: سقط من فوق إلى أسفل، وَأَهْوَاهُ هُو، يُقَالُ أَهْوَيْتُهُ إِذَا أَلْقَيْتَهُ مِنْ فَوْق»².

¹ - السعيد بخليل، الحسّ المأساوي في الشعر الجزائري القديم، (عصر الدولة الحمادية نموذجًا)، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2006، ص 09، 10.

² - ابن منظور، لسان العرب، مادة (ه، و، ي)، ص 115.

وعند (عبد القاهر الجرجاني) فهو يمزج بين عدّة مدلولات مُطلقا عليها الحقيقة المطلقة فيقول: «الهوية هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق»¹. فالهوية هي الجوهر الثابت والحقيقة المطلقة للإنسان فهي تشمل جميع الجوانب التي تُميّزه عن غيره من الكائنات ويُشبهه هذا النواة التي تحتوي على الشجرة قبل أن تنمو.

أمّا عند المفكر العربي (محمد عابد الجابري) فيُعرّف الهوية على أنّها «وجودٌ وماهية، والماهية ليست معطى نهائي بل هي شيء يشكّل شيئا يصير»².

يمكن القول إن من الصعب تحديد مفهوم ثابت للهوية؛ «فإنّ علماء الرياضيات وكذلك المتخصّصين في العلوم الإنسانيّة والاجتماعية (الفلاسفة، علماء النفس، وعلماء الأنثروبولوجيا)، يؤكّدون كلّهم على الصعوبة التي تواجهنا عند محاولة الإمساك بمفهوم الهوية»³، والمقصود هنا أنّ مفهوم الهوية غير ثابت وغير محدّد، فمفهومها متغيّر ومعقّد ومتداخل، يتشابك في مفهومها العديد من العوامل الاجتماعية، والنفسية، وغيرها من العوامل الأخرى، وبالتالي فإنّ صعوبة تحديد مفهوم الهوية تكمن في تعدد العوامل المؤثرة فيها وتغيّرها المستمر. ولهذا نقول عن مفهوم الهوية أنّه «متعدّد الدلالات بشكل غريب»⁴، لأنّه يتسم بالتنوع، والتعدّد، والتغيّر، وهذا ما يشكّل صعوبة في تحديد مفهوم واحد للهوية.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، التعريفات، تح عبد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، ص320.
² - محمد عابد الجابري، مسألة الهوية، العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، 2006، ص10.
³ - سعيد أراق، قضايا فكرية معاصرة (مشارف المعنى واللامعنى)، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، عمان، 2016، ص19، 20.
⁴ - المرجع نفسه، ص20.

تعدّد تعريفات الهوية عند المفكرين العرب وتمايزت في مفهومها، لكنّها ارتبطت من ناحية أخرى في كونها تعبيراً عن الهوية الإنسانية الخالصة، التي لا يمكن أن تنسلخ عن العادات الاجتماعية والتقاليد والروابط الدينية والثقافية، كون كل هذا يُعطي الخصوصية الكاملة للأفراد في المجتمع ويُميّزهم عن غيرهم. «فالهوية هي مجموعة المميزات الجسميّة، والنفسية، والمعنويّة، والقضائية، والاجتماعيّة، والثقافية، التي يستطيع الفرد من خلالها أن يعرف نفسه، وأن يقدّم نفسه، وأن يُعرّف الناس عليه، أو التي من خلالها يشعر الفرد بأنّه موجود كإنسان له جملة من الأدوار والوظائف التي من خلالها يشعر بأنّه مقبول ومُعترف به كما هو من طرف الآخرين أو من طرف جماعته أو الثقافة التي ينتمي إليها»¹. ومن هنا يُمكن القول إنّ الهوية هي مجموعة من الصفات التي تميّز بين الأفراد المختلفين، أصحاب الثقافات والتوجهات المختلفة، وهذه المميزات هي التي تُعطي الخصوصية للأفراد وتتيح القدرة على التمييز بينهم.

وعرّف أيضاً (رشاد عبد الله الشامي) الهوية على أنها «الشّفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها والتي عن طريقها يتعرّف عليه الآخرون، باعتباره منتبياً إلى تلك الجماعة»². وهذا يعني أنّ هوية الفرد لا تتشكّل بمعزل عن الجماعة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها، بل تتحدّد من خلال عضويّته فيها. أي أنّ الفرد يعرف نفسه بناء على القيم الثقافيّة والعادات التي يستقيها من مجتمعه أو من مجموعته الاجتماعيّة التي ينتمي إليها.

¹ - شرقي رحيمة، الهوية الثقافيّة الجزائريّة وتحديدات العولمة، جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، مجلّة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 11، جوان 2013، ص193.

² - رشاد عبد الله الشامي، إشكاليّة الهوية في إسرائيل، دار رشاد عبد الله الشامي، 2015، ص05.

كلا التعريفين يُشيران إلى أنّ الهوية تتكوّن من مجموعة الخصائص والسّمات التي تُميّز الفرد أو الجماعة، باعتبار أنّها تشتمل على الجوانب الجسميّة والنّفسية والاجتماعية والنّقافية، ممّا يُسهّل لهم ويُمكنهم تقديم أنفسهم للآخرين، وهذا ما يُعزّز الشّعور بالانتماء والقبول داخل محيطهم الاجتماعي.

مفهوم الهوية «ليس دالّاً لغويّاً بحتاً، بل هو دالّ فكري وتجريدي بامتياز، لذلك فإنّ مداه الدلالي لا يُدرك إدراكاً عينياً مباشراً عبر النّقابل السيروري الآلي بين بنية الدالّ وبنية المدلول، أو الصّورة السّمعية والصّورة الذهنية. بل هو مدلول يُدرك أساساً من خلال آليّة التّمثيل الذهني الذي يتطلّب درجة معيّنة من الكفاءة الإدراكية التجريدية»¹، وهنا ندرك أنّ مفهوم الهوية يتطلّب فهماً أعمقاً من مجرد كلمات، فهو يتشكّل ويُفهم من خلال عمليات ذهنية معقّدة تشمل التّمثيل الذهني والتّجريد وهذا ما يجعل منه مفهوماً فكريّاً وتجريديّاً بامتياز.

ب. تعريفاتها عند الغربيين:

يُعرّف المفكّر (ألكس ميكشيللي Alex Micheli) الهوية على أنّها «منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنّفسية والمعنوية...، فالهوية هي وحدة متكاملة من المشاعر الدّاخلية التي تتمثل في الشّعور بالاستمرارية والنّمايز»². تُبرز هذه المقولة أنّ الهوية تتجسّد في وحدة المشاعر الدّاخلية، مما يعني أنّ الفرد يشعر بالاستمرارية والتّميّز عن الآخرين، وهذا الشّعور بالاستمرارية يُمكن الشخص

¹ - سعيد أراق، قضايا فكرية معاصرة، ص 19.

² - رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 158.

من إدراك ذاته، بينما يُشير التَّميِّز إلى الخصائص الفرديَّة التي تفرِّقه عن غيره، ومن هنا يمكننا القول بأنَّ الهوية منظومة متكاملة تتألَّف من معطيات ماديَّة، ونفسية، ومعنويَّة، واجتماعية.

أما (تشارلز تايلور Charles Taylor) فنجدُه يعرفها على أنَّها «تعني من نكون، فهي المكان الذي ننتسب إليه، إنَّها تجسَّد بحق الخبرات والتَّجارب السَّابقة، التي تُضفي معنى على أذواقنا، ورغباتنا، وخبراتنا، ومطامحنا...، ومن ثمَّ فإنَّ إدراكي للهوية التي يعني أنني قد جعلت الهوية موضوعا للحوار مع الآخرين، وبذلك فإنَّ هويتي تعتمد إلى حدِّ كبير على علاقاتي التَّحاورية مع الآخرين»¹. وهذا يعني أنَّ الهوية ليست شيئا نملكه منذ الولادة فحسب، بل هي مشروع نعيشه ونتشكَّل فيه مع مرور الوقت، من خلال التَّجربة والتَّفاعل مع الآخرين. كما أنَّ الهوية ليست شيئا داخليا فقط، كونها تعتمد أيضا على التَّواصل والحوار مع الآخر، الذي يساعدنا على التَّعرُّف على أنفسنا.

كما شرحها قاموس (لاروس Larousse) أنَّها: «مجموع الطُّروف، أو الحياتيات التي تجعل من الشَّخص شخصا مميِّزا أو محدَّدا»². وهذا يعني أنَّ الهوية هي مزيج من الطُّروف والعوامل التي تساهم في تشكيل شخصيَّة الفرد؛ فمن خلال هذه العوامل يمكن للفرد أن يُعرِّز وعيه ويثبت ذاته ممَّا يجعل منه شخصا مميِّزا

2. المفاهيم الاصطلاحية للهوية.

أ. الهوية في الفلسفة وارتباطها بالوجود:

¹ - حسام الدِّين علي مجيد، انبعاث ظاهرة الهويَّات، قراءة في منظور المفكر الكندي تشارلز تايلور، موقع: مؤمنون بلا حدود، 2016-12-22. ص18

² - أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته تطوره وقضاياها، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر، 2007، ص12.

تعد الهويّة من أبرز القضايا التي شغلت الفكر الفلسفي، لأنها ترتبط بالسؤال الجوهري "من أنا"، فالإنسان لا يعيش فقط ليأكل ويعمل، بل يسعى لفهم ذاته، ومكانته في العالم. ومن هنا نجد تقاطعا واضحا بين الفلسفة والهوية. كون الأولى تجيب عن أسئلة الوجود والحرية والمعنى، والثانية تتشكل من هذه العناصر المتكاملة.

لقد اهتم العديد من الفلاسفة اليونانيون بمفهوم الهوية كمصطلح قائم بذاته، ومن بين هؤلاء الفلاسفة (أرسطو Aristotle) الذي يعد من أهم الفلاسفة الذين أعطوا تعريفا مضبوطا لهذا المصطلح، وكون ما يعرف بمبدأ الهوية «الذي يثبت أن الشيء ما مساو لذاته مساواة تامة وكلية لا يمكن أن يكون هو وغيره في الوقت ذاته»¹. والمقصود بهذا القول إن مبدأ الهوية هو الطريق الذي نعي به الشيء كونه ينص على أن كل شيء يظل مطابقا لذاته تماما. فلا يمكن أن يكون الشيء نفسه وغيره في الوقت ذاته.

وفي هذا الصدد نجد أيضا تعريف (لايبنتز Leibnitz) للهوية حيث يعتبرها «وعي الإنسان بوحده رغم التغيرات التي تطرأ عليه خلال مختلف مراحل وجوده أي بقائه مساويا نوعيا لذاته وواجدا عدديا لكل الأحوال»²، أي أن الإنسان عند (لايبنتز Leibnitz) لا بد أن يكون واعيا بوحده لكي يستطيع أن ينفرد عن غيره ويتميز عنهم. وامتد هذا المفهوم حتى فلسفة العصور الوسطى، فنجد أن الفلاسفة المسلمين أمثال (ابن رشد) قد تناولوا هذا المفهوم حيث عرفها بقوله: «الهوية تقال بالترادف

¹ - جلييلة المليح الواكدي، مفهوم الهوية (مسارته النظرية والتاريخية في الفلسفة، في الأنثروبولوجيا، في علم الاجتماع)، مركز النشر الجامعي، تونس، 2010، ص16.

² - المرجع نفسه، ص70

على المعنى الذي يطلق عليه اسم الوجود¹ فهذا يعني أن الهوية ترتبط بما يسمى الوجود أي الكينونة أو الوجود بشكل عام وبهذا يدل على أن الهوية تتداخل مع فكرة الوجود، وكل موجود له هوية تميزه. وما نلاحظه في الأخير أنّ الهوية عند (أرسطو Aristotle) تقوم على مبدأ منطقي، حيث يُعتبر الشيء مطابقاً لذاته ولا يمكن أن يكون غيره. في المقابل يُقدّم (لايبنتزر Leibnitz) مفهوماً للهوية يرتكز على الوعي الذاتي حيث تظل الذات واحدة ومتماثلة رغم التغيرات التي تطرأ عليها. وهنا نخلص إلى أنّ كلا المفهومين يظهران لنا كيف يمكن للهوية أن تكون ثابتة من جهة ومتجددة من جهة أخرى.

بالإضافة إلى (ابن رشد)، نجد أيضاً (الفرايبي) الذي يعرف الهوية على أنها «من الموجودات وليست من المقولات، فهي من العوارض اللازمة وليست من جملة اللواحق التي تكون بعد الماهية كما حدد هوية الشيء بأنها عينيته ووحدته وتشخيصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له»². وهذا يعني بأن الهوية من اللوازم الضرورية المرتبطة بالإنسان والتي لا يمكنه الاستغناء عنها، ذلك لأنها تميزه وتبرز وجوده وتفردته حيث يكون له وجود مستقل يختص به وحده، فهي حقيقة مميزة.

ونجد أيضاً الفيلسوف (شلينغ Schelling) الذي يعد أول من وضع كتاباً يحمل عنوان "الهوية" وذلك في بداية القرن التاسع عشر، حيث يرى «أن الهوية المطلقة هي جوهر العقل وماهيته»³. من خلال هذا المفهوم حاول (شلينغ Schelling) تقديم رؤية موحدة للوجود، كما أنّه ربط الهوية بالعقل فالعقل في فلسفته ليس مجرد أداة للتفكير فحسب، بل هو جوهر حي وبهذا فهو

¹ - المرجع نفسه، ص 35.

² - رضا شريف، الهوية العربية الإسلامية وإشكالية العولمة عند الجابري، ص 15.

³ - أشرف حافظ، الهوية العربية والصراع مع الذات، ص 28.

يُقدّم تصوّراً للذات والطّبيعة. وفي هذا يقول (رحيم أبو رغيف الموسوي) أي: «أنّ فلسفة شلينغ أهم ما يميزها هو أنها تقوم على القول بأن جوهر الأنا هو الروح وجوهر الطّبيعة هو المادة»¹، وهذا يعني أنّ الإنسان كائن روحي يتميز بخاصية الوعي والتفكير، بينما الطّبيعة تتكون من أشياء مادية ملموسة.

نستخلص في الأخير أنّ فلسفة (شلينغ Schelling) تقوم على الحقيقة المطلقة وهي رؤية فلسفيّة تُقدّم لنا الوجود الإنساني والطّبيعي من خلال تأكيده على وحدة "الأنا والروح" و "الطّبيعة والنّدى"، وهو البُعد التّقدي الذي أشار إليه المفكّر العراقي (رحيم أبو رغيف الموسوي).

تغوص فلسفة (جان بول سارتر Jean-Paul Sartre) في أوصل قضية الهوية، لكن بطريقة مختلفة عن الفلاسفة الآخرين. حيث عالج هذا الأخير فكرة الهوية من منظور فلسفي وجودي، مركزاً على التوتر الموجود بين الذات والهوية، وهذا استناداً على أن الإنسان ليس شيئاً ثابتاً بل يتغير طوال الوقت، وهذا ما لا يعطي صفة الثبات للهوية الشخصية للإنسان. فنجدّه يشير إلى هذا في العديد من فصول كتابه (الوجود والعدم).

ركز (سارتر Sartre) على فكرة أن الإنسان ليس شيئاً ثابتاً بل يتغير ويتطور كونه دائماً منغمساً دائماً التفكير والتخطيط والإنجاز، وأشار إلى هذا في محور من محاور كتابه قائلاً: «ما هو لذاته، متجاوز بواسطة ما لذاته المعدم، الممسك لما هو لذاته في غلوة نفسه إنه كوني، أنا تبرير نفسي دون أن أكون أساس ذاتي»². ويظهر جلياً أن (سارتر Sartre) أشار في مقولته هذه إلى أن

¹ - رحيم أبو رغيف الموسوي، الدليل الفلسفي الشامل، ج2، دار المهجة البيضاء، ط1، بيروت، 2013، ص87.

² - جان بول سارتر، الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهرانية، تر: عبد الحميد بدوي، منشورات دار الآداب، ط1، بيروت، 1922، ص509.

الإنسان لا يتوقف عند ما هو عليه الآن، بل يكون دائما في محاولة تتجاوز نفسه إلى شيء آخر أحسن مما هو عليه بواسطة قدرته على الاعتراف بعدم رضاه عن نفسه، وهذا ما يعطيه قابلية أكثر للإنجاز والتطور. وفي الأخير أشار إلى أن وجوده في الحقيقة ليس طوع يده، فلم يختار أن يولد لكن لديه الاختيار في تقرير مصيره. ومن هنا نستنتج أن الإنسان رغم ولادته بهوية جاهزة ومغلقة إلا أن هذا لا يعد عائقا يحول بينه وبين إيجاد أقصر طريق لتحقيق ذاته.

كما نجد أن (سارتر Sartre) قد أشار في مقام آخر إلى قضية الهوية وعلاقتها بالوجود الإنساني والتغيرات التي يمكن أن تطرأ وتغير إحساس الإنسان بهويته الشخصية الخالصة فنجده يقول: «إن مبدأ الهوية يمكن أن يقال عنه أنه تركيبى، ليس فقط لأنه يحد مداه بمنطقة وجود محددة، ولكنه خصوصا لأنه يجمع في داخله لا نهايات الكثافة»¹. وانطلاقا من هذا الطرح نجد أن (سارتر Sartre) أشار إلى أن الهوية ليست بالشيء البسيط أو الثابت، بل هي مزيج كامل من الوعي والطموحات والقرارات المضبوطة بروابط من الماضي والحاضر.

في ختام استكشافنا لفلسفة (سارتر Sartre) حول الهوية وعلاقتها بالوجود، يتضح لنا أنّ الهوية ليست حالة ثابتة بل هي عملية حركية تتجاوز الثبات والتحديد المسبق حيث أنّ الإنسان يكون دائما في حالة تشكيل وتجاوز لذاته. فالوجود في نظره يسبق الهوية، والهوية تتشكل من خلال الوجود، فالإنسان ليس مجرد كائن موجود فقط بل هو كائن يخلق نفسه من خلال أفعاله واختياراته، وبهذا تُصبح هويته نطاقا واسعا تغوص فيه ذاته من خلال ماهيته.

ب. الهوية في علم النفس:

¹ - جان بول سارتر، الوجود والعدم، بحث في الأنطولوجيا الظاهرية، ص153.

يعتبر (إيريكسون Erikson) أن: «عملية تشكيل الهوية النفسية ونموها هي بمثابة إعادة للتوازن في بناء الهوية النفسية التي تتشكل خلال مرحلة الطفولة (البناء الأول للهوية)، إذ أن نتيجة الأحداث التي يمر بها الفرد خلال المراحل العمرية اللاحقة، والتي تقود إلى إحداث خلل في التوازن لديه، فإنه يستوجب عليه إعادة تشكيل الهوية كاستجابة للمرحلة النمائية، حيث يتوقع إعادة بناء وتشكيل الهوية لدى الفرد عند دخوله مرحلة من مراحل النمو النفسي»¹، والمقصود من هذا أن الهوية النفسية تبدأ وتنمو وتتشكل من خلال مرحلة الطفولة، حيث تعد هذه المرحلة الأساس الفعلي لتكوينها، فالفرد في هذه المرحلة يكون شديد التأثر بكل ما يمر به من ظروف، سواء كانت تحديات أو تسهيلات، مما يسهم في بناء شخصيته وتشكيل نظرتة إلى نفسه والعالم من حوله.

وقد ورد تعريف الهوية النفسية بأنها: «مقدار ما يحققه الفرد من الوعي بالذات، والتفرد بالاستقلالية وأنها ذات كيان متميز عن الآخرين، وما يحققه من الاحساس بالتكامل الداخلي، والاستمرارية عبر الزمن والتمسك بالمثاليات والقيم السائدة في ثقافته»². وهذا يعني أن الهوية النفسية تعكس مدى وعي الفرد بذاته وإدراكه لاستقلاليتها بوصفه كيانا متميزا عن الآخرين، كما أن إحساسه يتجلى بتكامله الداخلي، وذلك بالتزامه ببعض المبادئ والقيم التي تسود في ثقافته.

استنادا لما سبق وصلنا إلى نتيجة مفادها أننا نستطيع أن نجتمع بين هذين المفهومين في إطار واحد، حيث تُعتبر الهوية هنا عملية ديناميكية وتفاعلية تتشكل ويُعاد تشكيلها باستمرار استجابة للتحديات والضغوط النفسية وحتى الاجتماعية. تبدأ هذه العملية منذ مرحلة الطفولة حيث يتأثر

¹ - بوعيشة أمال، جودة الحياة وعلاقتها بالهوية النفسية لدى ضحايا الإرهاب بالجزائر، مذكرة دكتوراه، إشراف: جابر نصر الدين، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2013/2014، ص114.

² - بوعيشة أمال، جودة الحياة وعلاقتها بالهوية النفسية لدى ضحايا الإرهاب بالجزائر، ص 114.

الفرد ببعض القيم والمعتقدات لتستمر في جلّ مراحل حياته، حيث يُتَوَقَّع من الفرد استكشاف أدواره المختلفة لتكوين إحساس واضح ومتماسك بالذات؛ وبهذا يستطيع تحقيق هوية مُستقرّة تُعبّر عن تميّزه واستقلاليته وبها يُعزّز تكامله الداخلي. وهكذا يُمكن القول بأنّ الهوية في علم النفس لا تُعدّ حالة ثابتة تُكسب مرة واحدة، بل هي عمليّة مستمرّة ومتطوّرة يمرّ بها الإنسان طوال مراحل حياته نتيجة تأثره بالتجارب والعلاقات والظروف المتغيّرة المحيطة به.

ج. الهوية في علم التاريخ:

يعرف لنا (عبد الرحمن ابن خلدون) التاريخ (histoire) في قوله: «إن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو بجيل، فأما ذكر الأحوال العامة للأقوال والأجيال والعصور، فهو أساس للمؤرخ تتبني عليه أكثر مقاصده وتبين به أخباره»¹، والمقصود أن التاريخ هو مجموعة من الأخبار والوقائع التي تسجل وتحفظ عن فترة زمنية معينة، أو جيل من الأجيال. كما أنه يعتبر مرجعا مهما للمؤرخين، باعتباره يقوم بتوثيق أي حدث من الأحداث وفي أي حقبة كانت، سواء تعلق الأمر بالأحوال العامة للمجتمعات أو الأوقات التي عايشها الناس، فهو يساعد على فهم الحياة في أي عصر كان.

يشكل التاريخ جزءا أساسيا من هوية الإنسان والمجتمع، فهو يعرفنا بماضيها، ويوضح لنا كيفية تطور ثقافتنا وعاداتنا وتقاليدينا من خلال معرفة الأحداث التي مرّ بها أجدادنا، كما أن التاريخ يساعدنا على فهم حاضرنا وبناء مستقبلنا بوعي، كونه يشكل جزءا أساسيا من هويتنا.

¹ - عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج2، تح: عبد الله محمد درويش، دار يعرب، ط2، 2004، ص34.

وعند ربط التاريخ بالهوية، يقدم لنا (عبد الله العروي) الهوية التي يعتبرها وعيا للذات، ليس إلا في الأساس وعيا للغرب، وكذلك وعيا للماضي، وإن العرب في تعريفهم للهوية يربطونها بالتاريخ القومي واستمراريته. حيث يقول: «حينما ينعدم الشعور العفوي المباشر بالذات، فيلجأ الناس مضطرين إلى الماضي، ليؤكد لهم هويتهم، فتصبح مرادفة للاستمرارية التاريخية، فهويتنا هي ما خلفه الأسلاف»¹. وما يريد أن يرمي إليه (العروي) من خلال قوله هذا أن الإنسان عندما لا يشعر بوضوح من هو في المجتمع والمحيط الذي ينتمي إليه، يبدأ بالبحث عن مصادر خارجية تؤكد له هويته، فنجد بهذا يلجأ إلى تمجيد الماضي وتقديس ما فعله الأجداد، وفي هذه الحالة تصبح الهوية شيئاً ثابتاً مرتبطاً بما مضى. فبدلاً من أن تكون الهوية نابعة من التجربة الشخصية والحياة اليومية تصبح مجرد امتداد لما ورثناه من الأسلاف، وانطلاقاً من هذا يمكننا القول إن التاريخ رغم كونه مكوناً أساسياً في تشكيل هوية الإنسان وكيانه وثقافته، إلا أن ارتباط الإنسان به بشكل مفرط يحد ويحول دون تطور ذات الفرد في المجتمع

د. الهوية في علم الاجتماع:

ترتبط الهوية في علم الاجتماع بالمجتمع بصفة خاصة، كونها تمثل ظاهرة اجتماعية تحدد ماهية المجتمع وتعطيه خصوصية خاصة به، وتميز أفراده عن غيرهم من خلال سمات وصفات ثابتة لا تتغير ولا يمكن المساس بها تحت أي ظرف من الظروف، فنجد مثلاً الإسلام في المجتمعات الإسلامية يعبر عن شق كبير من الهوية الفردية والجماعية، لذلك المجتمع يؤطر تفكيره وثقافته ويحصرها في نسق محدد من المعطيات.

¹ - عبد الله العروي، الأيديولوجيا المعاصرة، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 1999، ص97.

وبالإضافة إلى الدين نجد اللغة العربية التي تشترك فيها العديد من الدول في الوطن العربي، لكن كل واحدة بخصوصياتها التعبيرية والاجتماعية والثقافية والفكرية، وكل هذا أعطى الهوية صفات الترحالية، أي الاختلاف كون مفهومه النظري واحد، لكنها تخضع لتغيرات جوهرية من مجتمع لآخر، ومن هنا يمكن القول: «أن الهوية جماعية تستمد ملامح مقوماتها من ثقافة المجتمع، فالمجتمع هو الذي يعمل على إنتاج الثقافة وإنتاج هوية جماعية والتي بدورها تزود الأفراد بعناصر هويتهم»¹. ومن هنا نستنتج أن الهوية الجماعية تتشكل من خلال ثقافة المجتمع، حيث يقوم المجتمع بإنتاج الثقافة والهوية الجماعية والتي بدورها تمنح الأفراد مكونات هويتهم الشخصية، أي أن الثقافة هي المعيار الأساسي الذي تتشكل من خلاله الهوية الجماعية للأفراد في المجتمع، وبالتالي تزود الأفراد بعناصر هويتهم الفردية.

يعتبر الانتماء إلى الجماعات جانبا أساسيا من حياة الإنسان فهو «من حيث هو كائن لا تتحدد هويته الأصلية بكونه حيوانا اقتصاديا فقط، بل باعتباره أيضا كائنا أخلاقيا تتدخل في تشكيل هويته البشرية، قيم ومقتضيات أخلاقية ضرورية لتماسك بنيات المجتمع ومكوناته»². والمقصود بهذا أن هوية الإنسان لا تقتصر على كونه كائنا اقتصاديا يسعى لتحقيق مصالحه المادية فحسب، بل تمتد أيضا لتشمل بعدا أخلاقيا يتجسد في قيم ومبادئ توجه سلوكه وهذا بدوره يساهم في تماسك المجتمع. والإنسان لا يعيش في عزلة، بل يكون دائما جزءا من دوائر اجتماعية متعددة، ومن خلال تفاعله مع هذه الجماعات تتكون ملامح هويته وتتشكل رؤيته لذاته وللعالَم من حوله، ف«نحن ننتمي إلى العديد من الجماعات المختلفة بطريقة أو بأخرى، وكل هذه الجماعات يمكن أن تمنح للشخص

¹ - جلييلة المليح الواكدي، مفهوم الهوية، ص 154-155.

² - سعيد أراق، قضايا فكرية معاصرة، ص 24.

هوية يحتمل أنها مهمة بالفعل»¹. أي أنّ الشخص يكتسب هويته من خلال انتمائه لعدة جماعات أو مجتمعات مثل (العائلة، الأصدقاء، الثقافة...) فكل جماعة من هذه الجماعات تلعب دورا في تشكيل شخصية الفرد وهذا بدوره يمنحه الشعور بالانتماء مما يساهم في تحديد هويته.

ختاما لهذا يتّضح لنا أنّ الهوية في علم الاجتماع تُمثّل تفاعلا حيويًا بين الفرد والجماعة، حيث تُنتج من خلال التفاعلات الاجتماعية والثقافية؛ باعتبار أنّ الهوية جماعية تُبنى من خلال القيم والمعتقدات الخاصة لمجموعة ما بينما تساهم الهويات الفرديّة في تشكيل الذات من خلال الانتساب إلى هذه الجماعات وهذا بدوره يبعث فيهم روح الانتماء والتّماسك في المجتمع.

3. الأبعاد الأساسية للهوية:

أ. البعد الوطني:

تُعدّ الهوية الوطنيّة من الرّكائز الأساسيّة التي تضمن تماسك المجتمع ووحدته، فهي تعبّر عن الانتماء للوطن والولاء له والإحساس بالمسؤوليّة اتجاهه، ويُعدّ البعد الوطني للهوية أحد أهمّ أبعادها كونه يجسّد العلاقة بين الفرد ووطنه من خلال مشاعر الانتماء والاعتزاز بالتّاريخ والثّقافة والوطنيّة، وهذا ما يُساهم بشكل أساسي في تقوية الوحدة بين الأفراد داخل المجتمع الواحد، ويغرس فيهم الحبّ والارتباط بالوطن والافتخار بالهوية الوطنيّة.

وهذا ما أشار إليه (البشير ربح) في كتاب "السؤال عن الهوية" حيث يقول: «تُعدّ الهوية والوطن قبل كلّ شيء مكان أو موقع مبرّر أو ظرف مقدّر، ذلك أنّه مأوى يسكن الإنسان وهو في ضمير الوجود قبل أن يصبح الإنسان من ساكنيه أو من أهله المنتمين إليه، وكلّ إنسان يولد له موقع

¹ - مارتيامن، الهوية والعنف، تر: سخر توفيق، عالم المعرفة، الكويت، 2008، ص38.

في شجرة، إنسان عائلته بالوطن وقد يولد البعض في غير أوطانهم، ويموت آخرون في غير أوطانهم، كما قد يقيم أناس بغير أوطانهم لكن القاعدة في الحياة أن أرض الوطن تمثل أمّ الإنسان التي تحمله من المهد حتى يضمّه اللحد بعد أمّه الذي تحمله من نفخة الرّوح إلى أن يقلّه المهد»¹.

والمقصود بهذا القول أن الوطن ليس فقط مكانا نعيش فيه، بل هو جزء أساسي من وجود الإنسان وهويته، فالوطن موجود في وجدان الإنسان وروحه قبل أن يسكنه جسديًا، أي أن الإنسان يولد مرتبطًا بمكان ما حتى قبل أن يسكن فيه أو يعيش فيه، فمهما اغترب أو عاش في أماكن أخرى، إلا أنه يبقى مربوطًا بخيط هويته الأصليّة المحبوك في نسيج تفكيره وعاداته ومبادئه حتى مماته، ومن هنا نجد أن الوطن يُشبه الأمّ الثّانية للإنسان، فهو يحمل هويته ويرتبط به ارتباطًا روحيًا ووجدانيًا حتى ولو ابتعد عنه وعاش في أماكن أخرى.

ب. البعد الدّيني:

يُعدّ البعد الدّيني أيضا عمادا رئيسيًا وأحد الركائز الأساسيّة في تشكيل هوية الفرد داخل المجتمع كون الدّين يُعدّ بمثابة مقوم يقوم ويوجّه سلوك الإنسان، ويُرشّد تفكيره ضمن أطر محدّدة تعطيه نظرة خاصّة للوجود والحياة، فالدّين ليس فقط مجموعة من الشّعائر والعبادات، بل هو أعمق من هذا بكثير كونه منهاج حياة شامل، يُكوّن الوجدان ويغرس القيم العليا ويُطهّر النّفس ويُبعدها عن الظلال والشّتات وكلّ هذه الأمور مجتمعة تُشكّل هوية الفرد المسلم في المجتمعات العربيّة المسلمة، ونجد أن القرآن قد أشار في كثير من المواضع إلى هذا وحثّ عليها، يقول تعالى في سورة الأنعام:

¹ - البشير ريوح، السّؤال عن الهوية (في التّأسيس والنّقد والمستقبل)، دار لامان، ط1، الرّباط، 2016، ص306.

«قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبَائِي حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»¹، وهذه الآية تُظهر جليًا دور الدين في تقويم طريق الفرد وتوجيهه إلى الصواب.

وباعتبار أنّ الدين له تأثير عميق في تشكيل التصورات والسلوكيات والقيم لدى الأفراد، فما يهمننا هنا هو إبراز التّعلق القوي بين الهوية والمكوّن الديني، وهو تعلق يؤكد "مالك شيبيل" قائلا: «إننا نصنّف الدين ضمن الإطارات القاعدية التي تدفع الفرد إلى الوعي بهويته. فأنساق التفكير والسلوكيات الناتجة عنها مترتبة عن الاندماج الديني والانتماء الموضوعي أو الذاتي لجماعة دينية معينة»². هذه المقولة تُوضح كيف أنّ الدين يُشكّل عنصرا أساسيا في هوية الإنسان، فعندما ينتمي الفرد إلى جماعة دينية سواء كان هذا الانتماء موضوعيا أو ذاتيا فإنه يؤثر على طريقة تفكيره وسلوكه ويدفع الإنسان إلى الوعي بهويته من خلال احتكاكه بهذه الجماعة.

ج. البعد الثقافي:

لكلّ مجتمع إنساني هوية ثقافية تميزه فهي جوهر المجتمعات، تنبع من تجاربه وتراكماته الفكرية والدينية والأخلاقية، وليست مجرد انعكاسات لعاداته وتقاليده؛ لذلك لا تتشكّل هذه الهوية صدفة بل تتبلور عبر جملة من القيم والمعايير التي تُصبح مع الوقت أشبه بقوانين وجب الالتزام بها ولا يمكن تخطئها. ذلك لأنّها تعدّ «جملة الخبرات الاجتماعية والحكمة الأخلاقية والدينية والاتفاقات الايديولوجية النظرية التي يُصيغها مجتمع ما، حيث تصبح تلك الخبرات والاتفاقات النظرية قوانين

¹ - سورة الأنعام، الآية 161.

² - سعيد أراق، قضايا فكرية معاصرة (مشارف المعنى واللامعنى)، ص 40.

ملزمة ليس من اليسير اختراقها أو العبث بها، ومحاولة تغييرها إلا من أجل تطورها والارتقاء بها¹. تُبرز هذه المقولة بوضوح الكيفية التي تتشكل بها الهوية الثقافية داخل المجتمعات، إذ تُفهم الهوية هنا بوصفها نتاجا لتراكمات من الخبرات الاجتماعية والقيم الأخلاقية والدينية إضافة إلى الاتفاقيات الإيديولوجية والفكرية التي يتبناها أفراد المجتمع.

فهذه العناصر تتحول إلى قوانين تنصم سلوك الأفراد، وما يميزها هو أنها لا تُفرض من سلطة خارجية بل تُكتسب من داخل المجتمع مما يجعل اختراقها أو التغيير فيها أمرا محظورا، إلا إذا جاء هذا التغيير من منطلق تطويري يهدف إلى الارتقاء بالهوية. كذلك «...تعتبر الثقافة أحد أكبر العوامل التي تدفع الفرد إلى اكتساب هذه الهوية أو تلك»². وهذا يعني أنّ الثقافة تلعب دورا رئيسيا في تشكيل هوية الإنسان، فالهوية ليست شيئا يولد به الفرد فقط، بل تتكون وتتطور نتيجة تفاعله مع البيئة المحيطة به، والثقافة أحد أهم المكونات في هذه البيئة. وهنا نفهم أنّ البعد الثقافي للهوية كيان متجدد يحافظ على أصالته وفي الوقت نفسه قابل للتحديث.

وهكذا تتجلى الهوية في تكامل أبعادها الوطنية والدينية والثقافية، حيث يُشكل البعد الوطني الانتماء إلى الأرض والتاريخ، ويمنح البعد الديني القيم والمبادئ التي تهذب السلوك وتوجه الفرد نحو الخير، فيما يُثري البعد الثقافي الهوية بالتنوع والابداع. ومن خلال هذا التلاحم المتناغم بين الأبعاد الثلاثة ستصبح الهوية لبنة أساسية تحفظ للأمة أصالتها.

¹ - عبد العزيز بن عثمان التويجري، التراث والهوية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية، الرباط، المغرب، 2011، ص 21.

² - سعيد أراق، قضايا فكرية معاصرة (مشارف المعنى واللامعنى)، ص 40.

الفصل الثّاني: تجلّيات صراع الهوية.

١. صراع الهوية مع الذات نفسها.

٢. صراع الهوية مع الآخر.

٣. ملامح نزاع الهوية.

٤. هوية الرواية والسّارد.

1. صراع الهوية مع الذات نفسها:

1.1. انتحال الهوية الجديدة:

كان للصراعات النفسية حضور قوي في النفس البشرية منذ القدم، كون الإنسان يمرّ بمراحل وأزمات تترك بصمتها في النفس، وتسبب حالة من التوتّر الداخلي والشحنات السلبية التي يكون لها وقع قويّ على باطن الإنسان وظاهره، وهذه الصراعات قد تتجم عن تعارض رغباته ودوافعه وقيمه التي بُني وتشكّل رصغه عليها، ومنه نجد أنّ «الاضطراب النفسي هو عبارة عن اختلال سريري جسيم في إدراك الفرد، أو ضبطه لمشاعره، أو سلوكه، وعادةً ما يرتبط بالكرب، وبقصور في مجالات مهمة في الأداء، ويُعرّف أيضا بأنه نمط سيكولوجي، ينتج عن الشعور بالضيق أو العجز»¹. وهذا ما نجده ظاهرا وبارزا في الرواية حيث صوّر الروائي أصعب أنواع الصراع النفسي، وهو صراع الإنسان مع ذاته ونفسه وكيانه، ومزجه بنزاع (نور) مع (أور) الشخصية التي استحوذت على (نور) داخليا وخارجيا، فاضطرّ إلى تخمين تصرفاتها وأفكارها وعاداتها، رغم أنّه لا يعرف شيئا عنها، فارتدى ثوب وقناع العدو رغبة منه في الاستكشاف، وكان لهذا وقع قويّ على نفسيته التي احتدم الصراع فيه، وتعالّت فيها الأصوات والنزاعات والادّعاءات بين (نور) الشاب الفلسطيني المسلم و (أور) اليهودي المحتلّ، فنجد أنّ السارد نقل الصراع النفسي الحاصل في الرواية إلى شكل آخر لم نألّفه، فأوجد وزرع الصراع بين شخصيّة حاضرة وأخرى غائبة بين أولى معروفة وثانية غامضة، شخصيتان تحت ارتعاش لظلّ واحد وتحت أسوار جسم واحد أيضا.

¹ - مليك دريد، الوجيز في المتلازمة النفسية النادرة، دار خيال للنشر والترجمة، برج بوعريّج، الجزائر، 2024،

ونجد هذه الصراعات المحتدمة بثّت لهيبتها من اليوم الذي وجد فيه (نور) هويّة (أور) الإسرائيلي وبدأ يُخطّط لتجاوز حدود بلده ووطنه المُحرّمة عليه، وعلى غيره من بني جنسه، وما ساعده في الوصول لمراده حملته سمات مميّزة شبيهة بسمات الأجانب، من بياض البشرة وشعر الشّعور وطول القامة.

وهذا ما يظهر في قول السارد: «غير أنّ هذه الإطالة المُرفقة بشخصيّته الجذابة هي تي منحته، ولعنته ربّما ألقابا ومسمّيات متعدّدة، تردّدت أصداؤها في المخيم أبو نورة... الأجنبي... الأمريكي... السكناجي»¹. ومنه نجد أنّ هذه السمات كانت سببا في إتقانه لدور (أور) وجعلته يخوض فيه متحاملا على نفسه، وعلى هويّته، وضميره، فكنا نرى في العديد من المحاور كيف أنّ (نور) يجلد نفسه ربّما تخفيفا منه عن ذاته وتقليل إحساسه بخيبة أمله من روحه. فلو نظرنا بعين الواقع سوف نجد أنّ الكلام الذي يدور بين (نور) و (أور) ما هو إلا نسيج مخيّل (نور)، وهذا ما يظهر في مقطع من المقاطع حيث يدور حوار بينهما: «سترتديني بعد قليل لا تهنا كثيرا بعودتك لأصلك».

- همس أور بأذن نور الذي ردّ عليه بالهمس ذاته.

- أنا أرتديك كما أشاء لا كما تشاء أنت.

- سأفضحك... سأقول لصاحب المكتبة أنّك محتال وتحتال شخصيّة ليست لك.. شخصيّة يهودي².

ومنه نجد أنّ (نور) كان يعيش في ظلّ تقمّصه لشخصيّة (أور) صحّبا نفسيا كبيرا وأزمة هويّة عميقة،

¹ - الرّواية، ص22

² - الرّواية، ص 107.

فعلى أيّ شاكلة سوف يدخل وتطأ قدمه أرض المسجد الأقصى وتراب وطنه المضطهد، وهذا السؤال الذي طرحه عليه الشيخ إبراهيم قائلا: "وكيف سوف تدخل الحرم بأيّ هياة وهوية... نور أم أور؟"¹.

2. الهوية الجديدة وتحدي الذات:

وفي موضع آخر نجد (أور) يتعالى على (نور) متباهيا متفاخرا أمامه بأنّ هويته الإسرائيليّة هي التي حوّلت له قبوله في البعثة الآثاريّة فيقول: «لست أنت من أقنع بريان بضرورة قبولك بالبعثة بل أنا... أنا أور شابيرا ولست أنت يا... صحيح قل لي ما اسمك؟ من أنت؟»². وهذا يدلّ على وصول (نور) إلى أعلى مراحل العجز النفسي، حيث أصبح يدافع عن هويته وأصله مع شقّه الثاني الذي أدخله إلى حياته طواعيّة، فوجده يرمقه بالنظرات الدونيّة والاحتقار، انطلاقا من هذا «نجد أن الهوية ليست معطى ثابت، بل مشروع يتكون عبر الزمن من خلال التوتر بين الذات والآخر»³، والمقصود بهذا هو أن الهوية ليست شيئا دقيقا نولد به ونبقى عليه، بل هي عملية مستمرة تنتج من خلال تفاعلنا مع الغير، وذلك من خلال العلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع في ضل التوتر. فالهوية لا تتكون من فراغ، بل تنشأ ضمن شبكة معقدة من العلاقات. يعاد فيها تشكيل الذات، من خلال تلك النظرة التي يفرضها علينا الآخرون وتوقعاتهم، فالصراع هنا ناتج عن الاختلاف بين نظرتنا لذاتنا وبين نظرة الآخر لنا. واستمرّ الحوار بينهما فقال (نور): «هل مثلك يكثرث لأسماء الآخرين من أمثالي؟ أنا اسمي محدّد مسبقا من قبلكم... هكذا قال لي صديقي الذي حدّدتم اسمه أيضا إرهابي، مخرب... اسم متسلّل متواجد بصورة غير شرعيّة داخل إسرائيل»⁴، فهل أصبح وجود الإنسان في

¹ - الرّواية، ص111.

² - الرّواية، ص111.

³ - بول ريكو، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005، ص143.

⁴ - الرّواية، ص111.

أراضي وطنه تُهمة يُعاقب عليها، ويحمل على إثرها أسماء التّخريب والتّسلّل والإرهاب، وهل أصبح الدّخول إلى البيوت التي ترعرع فيها الإنسان، تلك البيوت التي تحمل الأمل والحبّ والأخوة وخيبات الأمل وقصص الحبّ غير المكتملة أحيانا، بيوتا يُحرم الدّخول إليها، والتّجول في الأزقة التي احتضنت الطّفولة وذكريات أيام الدّراسة، وأصوات الطّبول والزّغاريد والأفراح، بعيدة بعد السّماء عن الأرض، وهل أصبح زيارة المقابر التي دُفن فيها الأجداد والأولاد والأحفاد وكلّ عزيز، احتضن التّراب جثمانه. يستوجب ارتداء قناع الخزي والعار قناعا ملطّخا بدماء الأبرياء والشّهداء والمناضلين، هل هذا التّمن الذي يدفعه الإنسان ليدخل أرضا كانت ملكا له ولأشقائه، أرض رفض ترابها ورفضت أشجارها وسماءها وكلّ شبر فيها، أن يُخاض في شرفها، تلك الأرض البكر التي استسيغ عرضها عنوة.

وتعالّت الأصوات في موضع آخر بين (أور) و (نور) بعد اسمرار الأوّل في الاستفسار

عن اسم خصيمه، واستمرّ الثّاني في استفزازه، حيث قال (أور): «سألتك عن اسمك؟

-اسمي أور شابيرا.

-أيها الوغد... أتتذاكى عليّ الآن؟ أنسيّت أنّك أنت الذي اعتديت عليّ وانتحلّتي.

-أنسيّت أنّك أنت الذي تعاني من رفاهيّة الهويّة، مما جعلك تغفل عن وجودها في جيب معطفك الجلديّ.

-وارتديت معطفي الجلديّ أيضا؟!

-بل اقتنيتّه من سوق الخردوات.

-حسنا ماذا بعد؟

-ماذا بعد؟

-أنا أسألك... ما الذي تريده مني؟ متى ستعتقني من جنونك؟

-متى ستعتقني أنت من جنونك؟¹.

3. هيمنة الهوية الأصلية على الذات:

وأكثر صراع كانت ملامحه متأججة في الرواية هو صراع (نور) لإثبات وجوده لنفسه ولـ (أور)، فلم يكن يوماً ما يتخيل أن رحلته المثيرة داخل الأراضي المحتلة، سوف تبدأ بهدف كتابة رواية عن (مريم المجدلية) وتنتهي بصفعة قويّة أنجبت من رحمها مشاعر الحقد، والخزي، وتأنيب، الضمير، والكراهة، والضعف، ليعاني (نور) من أزمة نفسية قوية مع هويته الأصلية وهوية المحتل التي اختارها طواعية، فكانت له سجناً ضيقاً عاتي الأسوار، وهذا ما كان واضحاً في حوار دار بين (أور) و (نور)، حيث قال (أور):

«-حيرتني، كيف ستحرّر مني وأنت تتقمّصني وتنتحلني الآن؟!»

-قلت لك أنا لا أنتحلك.. أنا أدركك.. أتعلّمك.. أريد التّعرف على كيفية قيامك بالنّظر إلى الواقع وأحواله.

-وعلى ماذا عثرت أيّها العبقريّ؟

-عثرت على ذاتي منعكسة في مرآتك.

-وكيف هذا؟

¹ - الرواية، ص112.

-أنا وُلدت منك.. من رحم صهيونيتك ومن النكبة التي ألحقتها أنت بي وبالتالي أنا جزء منك وأنت جزء مني.

-أي هراء هذا؟

-بلى.. وعندما أتعلّمك سأقوى على الانفصال عنك، وأنت أيضا ستنفصل عني.

-كيف.. كيف بحق السماء، أجبني؟

-السّر يكمن بالمرأة. المرأة هي المعادلة، هي التفاصيل.. هي الكائنات أحدهما مسيطر والآخر خاضع. أنت أور مسيطر وأنا نور خاضع.. ولهذا، يجب أن أحطّم المرأة.

-أنت عاجز عن تحطيم نملة.

-ستشعر بهذا عندما لن تقوى على تلامس ملامحك بها. لن ترى وجهك هذا.. سترى وجهها إنسانيًا مشرقًا وبهيًا¹.

وفي موقف آخر تحاور (أور) مع (نور) معبّرًا عن سخطه الشديد جرّاء ضرب حماس

للمستوطنات الإسرائيليّة في القدس، فقال:

«-سعيد أنت أيها المخرب الصّغير، أليس كذلك؟

-ولما لا أكون سعيدا؟

-هذا يعني أنّك تؤيد قصف المدنيين الأبرياء وتدمير مساكنهم.

¹ - الرّواية، ص134.

-دعك من هذه الأسطوانة المشروخة فالأبرياء يهجرون من بيوتهم في حي الشيخ جراح الآن بسبب صواريخكم الجغرافية المقدسة، كما أنّ غزّة ستحترق بعد قليل بحمم قصفكم لها.

-لا يمكن أن نتحاور إذن.

-بل يمكننا.. فأنا لا أتغذى على دماء المدنيين الأبرياء من أيّ جهة كانوا.. لست مصاص دماء»¹.

فسرعان ما يعود (نور) إلى هويته الأصلية وسرعان ما يتخلّى عنها، بالأخذ والرّد، وهكذا دواليك، ونجد أنّ (نور) في هذا الموقف قد بدأ يتمالك شتات نفسه من ضياع كان محتوماً، لولا لقائه بـ (سماء) التي أشعلت فيه فتيل الوطنية التي كانت مطموسة تحت أنقاض (مريم المجدلية) فأصبح قادراً على مواجهة نفسه ومواجهة (أور) الذي أوشك على فقدان سيطرته على (نور)، وهذا يظهر حين باغت هذا الأخير (أور) بسؤال لم يكن يتوقّعه، لكن إجابته زعزعت كيان (نور) ورسّخت وجوده وأزلت عنه عبء (أور شابيرا) الثّقل، فقال:

«أور ما رأيك بي بعد مرور ثلاث سنوات على لقائنا الأول في سوق الخردوات في يافا؟ ما رأيك

بي الآن في هذه الأيام الأخيرة التي التصقنا بها معا بشدّة؟

...-

-أجيني لماذا صمتت؟

...-

¹ - الرواية، ص 233.

-ألا تعتقد أنني إنسان ولست مجرد كائن بلا اسم وملامح.. كائن مصنّف مسبقاً بوصف إرهابيٍّ أو مخرب.

-أنت أصبحت إنساناً خلال هذه المدّ بفضلِي أنا.. بفضل هويّتي.

-فإذا ما نزعت قناعك الآن أفلا أصير إنساناً؟

...

-أجيني.. أرجوك.

-حسناً.. لا أعلم.. ربّما! لكنني أخشى من اختفائي أنا إن أصبحت أنت إنساناً.

-فإذا ما حدّقت أنت بالمرأة الآن، فمن ستري؟

-سأراك أنت.

-بل ستري إنساناً»¹.

وبعد كلّ ما مرّ به (نور) سعياً وراء سراب علمه درساً لن ينساه طوال حياته، تجربة خرج منها واثقاً، مناضلاً، محبّاً لأرضه ولفلسطينه المغتصبة والمسلوبة منه، إلا أنّه كان على يقين أنّها سوف تعود يوماً إلى أصحابها. تلك الأرض التي طُمس تاريخها، وهُجّر أهلها، وأُعدم أطفالها ورجالها ونساؤها، وغُمرت أرضها من نجيع الشّهداء والأبرياء. فوقف هناك خارج حدود المستوطنة تحت أسوار موطنه المسلوب، رامياً قناعه وقلادة داوود التي كانت تُثقل صدره وتكتم نشيج أنفاسه، وتورق

¹ - الرّواية، ص 134.

منامة. موقنا أنه سيعود يوماً بهويته العربية الفلسطينية الأصلية، لا متخفية تحت أفضة النّجس، والخزير.

ومن هنا صور الروائي في آخر الرواية انتصار (نور) على غريمه (أور) فقال: «ينتزع قلادة نجمة داود من عنقه، يلقيها بعيداً نحو السهل المحاذي للرّصيف، ينتشل بطاقة الهوية المزوّرة من جيبه، هوية أور شابيرا، يستعرضها أمام ناظريّ سماء، ثمّ يمزّقها بعنف ليلحقها بالقلادة. لا ينبس ببنت شفة، تدمع عيناه، يُخرج هاتفه من جيبه، يُعيد برمجته للغة العربية...، ثمّ يقول لها قبل انطلاقهما معا هامسا بكل ما أوتي من لغته العربيّة المستعادة: -أنت هويتي ومالي¹. ومن هنا يُمكننا القول بأنّ الإنسان حتى ولو اكتسب امتيازات من هويات وجنسيات أجنبيّة، إلّا أنّه لن يستطيع أن يتخلّص من خصائص هويته الأصليّة، وإن كان بمقدوره أن يتخلّى عن جنسيته ورقياً، إلّا أنّه لن يحوّ وجود هويته الأصليّة في مخيلته ونفسيّته.

II. صراع الهوية مع الآخر:

1. صراع الأنا مع الآخر:

ممّا لا شكّ فيه أنّ الصّراع ظاهرة قديمة قدم الإنسان في بقاع الأرض الواسعة، كون نزعة ورغبة السّيطرة والامتلاك، جزء من النّفس المظلمة في كيان الإنسان وروحه. وهذا ما جعل هذا الأخير ظاهرة متجذّرة في التّاريخ البشري، فنجدّه «في نواحي الحياة المختلفة؛ في الفكر والحرب والحب والكرهية والغنى والفقر والرّحمة والقسوة والظلم والعدل، وموجود أو منعكس على النّفس الإنسانيّة وذلك مجال يكتنفه الغموض»². والمقصود بهذا أنّ الحياة مليئة بالأشياء المتقابلة والمتضاربة

¹ - الرّواية، ص238.

² - نجيب الكيلاني، خول المسرح الإسلامي، مؤسّسة الرّسالة، ط2، بيروت، لبنان، 1987، ص42.

فيما بينها، ووجود هذه المتناقضات في الحياة وفي النفس البشرية مصدر أساسي للنزاعات والصراعات التي نعيشها، سواء داخل أنفسنا أو مع الآخرين. ووجود هذه الأمور مجتمعة جعلت من الصراع حقلا خصبا يخوض فيه الأدباء، وينثر في خصمه بذور أعمال خالدة وباقية، وذات طابع إنساني بحت. صورت عواقب صراعات ومجازر لم ترحم صغيرا ولا كبيرا، فليس في الحرب والصراع معنى للأمم أو الأخوة أو الصداقة أو حتى للطفولة. ومن هنا نجد أن الأدب عالج وتمائل مع الصراع في خطابه «كونه خطابا تمثيلا وتعبيريا عن خلجات الإنسان، فمن اليسير إثبات ارتباطه بالصراع، حيث يشكل الأدب فضاء للصراع وأداة له عندما يتم تفعيله لصالح طرف ضدّ طرف في شبكة تعالقات اجتماعية وإيديولوجية غاية في التعقيد»¹.

المقصود بهذا أن الأدب يستعمل للتعبير عن مشاعر الإنسان وأفكاره، وهذا ما جعله مرتبطا بشكل حتمي بالصراعات التي يعيشها الفرد أو المجتمع، كون الأدب لا يعكس فقط هذا النزاع؛ بل يمكن أن يحول في حدّ ذاته إلى سلاح يستعمل لنصرة طرف ضدّ طرف. وهذا ما يظهر جليا في رواية (قناع بلون السماء) التي تُعدّ أيقونة ونقلا مباشرا ذو مصداقية عالية للأوضاع المأساوية التي يعيشها الشعب الفلسطيني، والصراعات النفسية وأزمة الهوية الدامعة التي تحطّ بوقعها النقيض على هذا الشعب الأبوي، فنجد الكاتب (باسم خندقجي) الأسير في سجون الاحتلال الإسرائيلي، والمحكوم بتهمة التآمر ضدّ الكيان والانخراط في تشكيل الجماعات الإرهابية، التي تُهدّد الأمن والاستقرار داخل ما يُسمّى بالدولة الإسرائيلية المزعومة لتظهر جليا مظاهر الصراع المحتدم التي صورها الكاتب بطريقة سلسلة ضمن حبكة درامية معقّدة، تدفعك للخوض في الصراعات الخارجية مع المحتلّ التي

¹ - سامية إدريس، صور الصراع في رواية "ص" لزرياب بوكمة - قراءة في المضمون-، مجلة الخطاب، جامعة عبد الرحمن ميرة، مج 13، ع1، بجاية، ص135.

يعيشها شعب بأسره والصراعات النفسية الداخلية التي يعيشها بطل الرواية (نور مهدي الشهدي) مع نفسه وكيانه وهويته الممزقة بين (نور) الشاب الفلسطيني ابن المخيمات البالية، و(أورشابيرا) الإسرائيلي صاحب الهوية الزرقاء التي تُحوّل له الخوض في الأرض المحتلة، التي اشتاق أصحابها لرائحة جدرانها وشوارعها وأشجارها ومائها وترابها وحتى أحجارها.

قبل الخوض في عمق أوصل الصراع الذي اكتنف ثنايا الرواية، يجب تقديم تعريف مقتضب عن مفهوم الذات والآخر، كونهما أهم طرفين في حالة الصراع التي يعيشها أبطال الرواية، وانطلاقاً من هذا نجد أنّ مفهوم الذات واسع ومعقد لا يمكن القبض عليه أو الإحاطة به بشكل كلي، لاشتراك العديد من التخصصات في تعريفه، كعلم النفس والأدب وعلم الاجتماع، فكل هذه التخصصات تربطه أو تدرسه من زاوية مغايرة للتخصصات الأخرى، لكن يمكن أن نجد تعريفات حاولت ضبط هذا المصطلح في نطاق تخصص الأدب، ومن هذه التعاريف نجد تعريف (أحمد برقاي) الذي أشار إلى أنّ «الأنا شخصية حاضرة دائماً في تجمّع إنساني، إنها لغة قيم، عادات، طموحات، أهداف، رفض، قبول، كلّ هذا لا يتم إلا في حقل التجمّع الإنساني بكلّ مستوياته.

الأنا عمل سلوك، والعمل والسلوك مرتبطان بالآخرين. الأنا ليست مجرد إحساسات، الأنا ليست بيولوجيا، الأنا اجتماعية ثقافية، الأنا إذا موجود على مقعد لا يكسب تمايزه إلا بالوعي الذاتي، إنّه وجود متمايز في العالم ولأنّه قائم في العالم فإنّ العالم قائم فيه»¹. وما يريد أن يرمي إليه (أحمد برقاي) من خلال طرحه هذا أنّ الأنا ليست شيئاً فردياً أو فطرياً فقط؛ بل هي بناء ثقافي اجتماعي

¹ - أحمد برقاي، الأنا، التكوين للتأليف والترجمة للنشر، د ط، دمشق، ص 15.

وجودي. وأن الذات ليست جسداً أو مشاعراً فقط بل هي وجود اجتماعي ثقافي واعٍ يُدرك الإنسان من خلاله نفسه ويشعر بأنه مختلف ومميّز.

أمّا مصطلح الآخر فقد أشار إليه (بوشعيب السّاورى) بقوله: «الآخر هو الذي يخالف الذات والعقيدة والتّقاليد، ويظهر الآخر كالمستعمر لنا، والعلاقة معه محكومة بالتّصادم والمواجهة»¹، والمقصود بهذا أن الآخر هو الشخص أو الجماعة التي تختلف عنّا في الدين أو الأفكار أو طريقة العيش. ويظهر هذا الآخر بشكل واضح عندما يكون مستعمراً، لأنه لا يكتفي بالاختلاف، بل يحاول فرض نفسه على الشعوب وسلب هويتها. لذلك تكون العلاقة بيننا وبين هذا الآخر علاقة صراع ومواجهة، لأننا نرفض أن نتخلى عن ثقافتنا وديننا، بينما هو يحاول السيطرة وفرض ما يؤمن به.

حوّت الرواية مظاهر الصّراع، وعبرت عنها بكلّ شفافية من خلال ذوات الشخصيات الرئيسيّة، ومن خلال ذات الكاتب في حدّ ذاته الذي يُعدّ جزءاً من هذه المأساة بروحه وكيانه، وما عاشه وما يعيشه إلى وقتنا الحالي داخل أسوار السّجون الإسرائيليّة العاتية، فنجدّه يصوّر لنا محاور الصّراع متنقلاً بين أنواعه.

ويظهر جلياً صراع الذات مع الآخر في محاور كثيرة من الرواية، وهذا ما يُحيلنا إلى «المغايرة التي تُعدّ حالة متعالّية تنشأ أساساً عند وصول أوجه الاختلاف إلى درجة قياسيّة تتحوّل بموجبها الأنا إلى ذات مغايرة للآخر، أي تتحوّل إلى هويّة تعي ذاتها باعتبارها هويّة مستقلّة مخالفة للآخر ومختلفة عنه»². وهذا ما يُحيلنا إلى طرح الرّوائي لقضيّة المخيمّات الفلسطينيّة، التي كانت

¹ - بوشعيب السّاورى، تمثيلات الهوية والآخر قراءة في نصوص روائية قراءات مغربية (الهوية والتّخييل في الرواية الجزائريّة)، رابطة أهل العلم، ط1، 2008، ص52.

² - سعيد أراق، قضايا فكريّة معاصرة (مشارف المعنى واللامعنى)، ص50.

وما زالت تعاني إلى اليوم من ظروف الحياة الصعبة، والفقد ورائحة الدماء التي تنبعث من كل ركن من أركانه، وسط تعقيم إعلامي لا يتقطن لفضاعة ما يعيشه أهل فلسطين إلا حينما تقع الفاجعة، وتزهق الأرواح، وتُتحر الطُفولة، وتُتكل الأمهات. فيعطى اسم للمخيم ويصبح شعلة باهتة خافتة تنطفئ أمام أي نسمة عابرة تاركة وراءها جمرا ورمادا يحرق قلوب أهل كل فقيد، فيقول في هذا الصدد: «ليس ثمة معنى لاسم المخيم الفلسطيني إلا عندما تُرتكب فيه المجزرة ليصبح اسما من أسماء المآسي في تاريخ الإنسانية»¹.

كما صور لنا الروائي في الكثير من محاور الرواية الصراع المحتدم الذي مازال قائما بين الجبهتين؛ جبهة تقدي دمها وروحها للحفاظ حتى ولو على جزء يسير من أرضها المغتصبة والمحتلة، والتي مازالت تُضرب وتُصهر بنيران الاحتلال، وتُدنس بأقدامهم ونفوسهم السوداء التي لا تحمل سوى الشر والخراب، والجبهة الأخرى التي لا يهّمها أن تُمسح عائلات كاملة من السجل المدني في سبيل فرض سيطرتها على أي منطقة يريدونها. حيث يقول الروائي وهو يصور (نور) جالسا يتصفح جرائم المجازر والتّهجير الذي تطبق على الفلسطينيين في أرضهم:

«الاحتلال يعتدي على المزارعين في الأغوار الشماليّة.

الاحتلال يُجبر مواطنا مقدسيا على هدم بيته على نفقته الخاصة بحجة عدم الترخيص»².

«تصاعد التوتر في القدس بعد إعلان بلدية الاحتلال نيّتها على إخلاء العائلات المقدسيّة من بيوتها

في حي الشيخ جزّاح»³.

¹ - الرواية، ص 16.

² - الرواية، ص 34.

³ - الرواية، ص 35.

2. صراع آيلا مع سماء:

كما صوّر الروائي في فصل من فصول الرواية صورة الصراع القائم والظاهر بين الأنا والآخر. "الأنا" الفلسطيني صاحب الأرض و"الآخر" الإسرائيلي الصهيوني السالب والمغتصب والمحتل لهذه الأرض. في شخصية (سماء) الشابة الفلسطينية المعتزة بعروبيتها وأرضها ولغتها، والتي لا تخشى التعبير والافصاح عن هويتها الفلسطينية أمام هذا المحتل، والثاني في شخصية (آيلا شرعابي) اليهودية ذات الأصول الشرقية الراضة للوجود الفلسطيني والعربي في دولة إسرائيل. فأنت شخصيتها تجسيدا صريحا لشخصية المحتل العنصري الذي يعيش في الأرض ويتعامل على أساس أنها أرضه وموطنه ومسقط رأسه، متناسيا مستبعدا أصحاب الأرض الحقيقيين، الذين هُجروا من أرضهم قسرا وهدمت بيوتهم واغتُصبت ذكرياتهم وآمالهم وأحلامهم.

ف نجد تصوير الروائي لكره (آيلا) العنصري (لسماء) والصراعات التي كانت تدور بينهما بسبب الاختلافات العرقية والثقافية والدينية، نتيجة إحساس إحداهما بالضعف، كون الأولى متجذرة من رحم الكيان الصهيوني المغتصب الذي حطّ رحاله على أرض ليست بأرضه، والثانية مفطومة على حبّ قضية تخلق عنها العالم بأسره؛ لكن (سماء) ظلّت وفية لأصلها وعروبيتها ووطنيتها مناضلة محاربة كالرجال، رغم أنوثتها الطاغية وملاحها العربية الأصيلة.

ومن هنا نرى أنّ مكنم الضعف قابع في جذور أصل الأولى التي حفظت تراثات التاريخ المزور عن ظهر قلب، وأمنت بحقها في الأرض التي ليس لها فيها بمقدار حصي، وتعالّت وتكبرت وتجبرت كغيرها من بني جنسها على أصحاب الأرض وملاكها، وهذا ما وضّحه الروائي في موقف من المواقف حيث يقول على لسان (نور): «تدفق الوقت في حواراته العبرية مع (آيلا) واعرابها الدائم

عن غيضاها وامتعاضاها من حضور هذه العربيّة التي لا تسأم من الحديث في السياسة ومعاني الهوية»¹.

وفي موقف آخر صوّر الروائي احتدام الصراعات بين (أيلا) و(سماء)، حيث قالت (أيلا):
«ألا تسأمين من ترديد التّراهاات أمام الطلبة الأجانب دائما أنتم الضّحايا ونحن الجلادون، أجابتها
"سماء" إنّها ليست تراهاات بل حقائق»².

وطرح الروائي أيضا في موضع آخر قضية الديمقراطية التي يدّعيها اليهود، وهذا ما أشارت إليه (أيلا): «أيّ ديمقراطيّة ما للعرب والديمقراطية، هكذا أنتم دوما أيّها الاشكنازيون تتشدّقون بالديمقراطيّة والليبراليّة واحترام رأي الآخر، أما على الأرض فأنتم أشدنا قبليّة»³. وهذه الديمقراطيّة الكاذبة المطموسة تحت نفسٍ عنصريّ طويل يحملها اليهود ضدّ العرب الذين سُلبت منهم أرضهم وحرّف تاريخهم ونُحرت حياتهم. وهم مازالوا يدّعون ويُهلّلون بالحرّيّة، وينادون بالديمقراطيّة والحقوق الإنسانيّة وأيديهم ملطّخة بدماء الأبرياء والشّهداء، فأيّ ديمقراطيّة هذه؟

3. صراع مراد مع المحتلّ:

أوّل صراع هويّاتي تمظهرت ملامحه في الرواية هو صراع (مراد) صديق (نور) الذي قُطفت زهور شبابه قبل بلوغها، ونُحرت أحلامه، وسُلبت حياته عنوة ممن أعطوا لأنفسهم الحقّ في الأرض، الحقّ في نهب الحياة، الحقّ في جعل أصحاب الأرض إرهابيين، ومخزّبين يُهدّدون أمن دولة ليست لهم، دولة مستجدة بلا تاريخ، بلا أصل.

¹ - الرواية، ص185.

² - الرواية، ص193.

³ - الرواية، ص185.

بدأت معاناة (مراد) من اليوم الذي سُحب فيه من أزقة المخيم الإسمنتي وهو في عزّ شبابه، سُحب بتهمة لا تمتّ بصلة مع الواقع، سُحب (مراد) من جوف رحم أهله، وسُحب حُلمه بدراسة المحاماة، وبناء مستقبل زاهر، سُحب بتهمة التآمر ضدّ إسرائيل المغتصبة، فُمع بسبب حبّ أرضه وغيرته عليها، وهذا ما صوّره الرّوائي في مشهد درامي قاطع للأنفاس، حيث قال: «وقعت الواقعة التي خطّطت لها قوّة خاصة لجيش الاحتلال الصّهيوني وعملت على تنفيذها بإتقان؛ إذ تتكرّر بعض أفرادها بملابس نسائيّة، فانتزعت القوّة مراد بسرعة البرق من حوار مع نور وأزقة المخيم وبيته، وطفولته وشبابه، وذكرياته ومائدة أمّه المزدانة بأكلة ورق العنب. اختطفوه في غمضة عين. اختفى أمام جفول نور وصمته ورعبه مما حدث، وما حدث له لم يُدرکه إلاّ عندما سمع وهو يختبئ في زقاق اسمنتي ضيق، دويّ القنابل الصّوتية وأزيز الرّصاص، أثناء تغطية انسحاب القوّة الخاصة التي اختطفّت صديق عمره، كما تنأهى إلى مسامعه أيضا، عويل أم عدليّ ونحيبها»¹.

واستمرّت معاناة (مراد) تحت أسوار سجن الاحتلال العاتية، معاناة كانت دامية على الصّعيدين، الأوّل؛ في قسوة وفضاعة السجون الإسرائيليّة التي تحرمه من أدنى حقوقه الإنسانيّة، والثّاني؛ كان في محاولته ونضاله الدّخلي للحفاظ على هويّته وأصله، الذي سعى الاحتلال بكلّ ما أوتي من قوّة وسلطة ومال لطمسه، لكنّه لم يستطع.

ف نجد هنا أنّ محاولة الإنسان للحفاظ على هويّته وبقائه في ظروف صعبة مثل التي مرّ بها (مراد)، يُعدّ أعظم إنجاز وأكبر دليل على الشّجاعة والقوّة.

¹ - الرّواية، ص 21.

وتطرق الروائي في محور آخر أيضا إلى هذا الصراع، الذي لا يحمل أيًا من معاني الإنسانية، فوجه الأضواء إلى قضية المساجين في الكيان الصهيوني الذين يعيشون جنبا لتعذيب الجسدي المقام عليهم، من دون انقطاع حرب نفسية قاهرة ، وهذا ما يظهر في رسالة بعثها (مراد) لصديقه (نور) شاكيا قانطا من عدم قدرته على رؤية أمه إلا سويغات معدودات في العام كله، فيقول: «رحلة الشتاء والصيف يا صديقي التي تتعب ولا تهنُّ بها أمي من أجل أن تراني من وراء الزجاج العازل للمشاعر لمدة لا تزيد عن خمس وأربعين دقيقة في الشهر، فإذا ما قمت أنا بحسم الإغلاقات التي يفرضها علينا الاحتلال بحجة الحفاظ على الأمن خلال فترة أعياده القومية والدينية فإنني لن أرى أمي في العام الواحد سوى 450 دقيقة»¹.

III. ملامح نزاع الهوية:

يُعدّ صراع الهوية بين الفلسطينيين والإسرائيليين من أكثر الصراعات تعقيدا وتشابكا في التاريخ المعاصر، إذ لا يقتصر النزاع بينهما على أمور سياسية أو على حدود جغرافية فحسب، بل يمتد إلى ما هو أوسع من ذلك، فالصراع بينهما متجذّر في أوصل الأرض والانتماء والتاريخ المسلوب، والحق في الوجود، حيث يسعى كل طرف لإثبات شرعية هويته الوطنية وتاريخه في أرض تعدّ بالنسبة للفلسطينيين الوطن، والأم، ومسقط الرأس، ونبض شريان الحياة، وللإسرائيليين أرض الميعاد. ومن منا يمكننا القول إنّ «صراع الهوية بين من نكون بالفعل ومن نتمنى أن نكون وبين ما نراه في أعين الآخرين وما نراه في داخلنا»²، يظهر لنا هذا القول الصراع الداخلي والتوتر النفسي، الذي يعكس

¹ - الرواية، ص 16.

² - ريك اريكسون، الهوية وأزمة الشباب، تر: محمد النويهي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1986، ص 96.

الازدواجية بين الهوية المفروضة والهوية المختارة، حيث يجد الفرد نفسه يعيش في حالة شتات، ويمتد به هذا التوتر ليخلق فيه اضطرابات داخلية تجعله مترددا وغير قادر على التعرف على ذاته، وهنا يصبح معلقا بين صورته الذاتية وبين صورة الآخر

وفي جوف كلّ هذا التنازع يعيش الفلسطينيون الذين يمثلون الأغلبية المقهورة حالة من الشتات التام بعيدا عن أرضهم المسلوبة، لتكون فلسطين أو غزّة تحديدا بإجماع الكلّ أكبر سجن مفتوح في العالم، وهذا ما نجده واضحا وبارزا في الرواية، حيث عمد الروائي إلى قولبة هذا النزاع في قوالب لغويّة ودراميّة محكمة السبك، أكسبت الرواية ديناميكية في الأحداث والوقائع، ونجد أنّ الروائي قد صور قضيةً ونزاعًا محتدماً دام لأكثر من سبعة وسبعين عاما، في قالب فنّي حوى في جوفه وصميمة كلّ مشاعر الشتات والخوف من المجهول.

1. نضال مهدي في وجه الكيان الصهيوني:

أول صراع هويّاتي تمظهرت ملامحه في الرواية، هو صراع (مهدي) والد (نور)، الذي كان عضواً في المقاومة الفلسطينية ضدّ الكيان الصهيوني، الذي حُرّم من عائلته، وأهله، وسجن، وعُذّب في السجون الإسرائيلية لسنين طوال، فقط لأنّه حارب من أجل استرجاع حقه المهضوم والمسلوب، ليس فقط حقه بل حقّ شعب بأسره، شعب هُجّر من دياره وقُسمت أرضه ومسقط رأسه، وجُبر مثله مثل آلاف الناس على مشاركتها مع دخيل عاش قرونا مشتتاً في بقاع الأرض وأتى في لحظة وسلب المنزل والمأوى من شعب برُمته.

فنجذ (مهدي) قد تخلّى، بعد ما عاشه وما رآه من ظلم وقهر داخل سجون الاحتلال، فخرج بشكل جديد عندما عاد إلى أهله أواخر شتاء 1995، وفاجأهم بانطفاء شُعلة الثّورة التي كانت متأجّجة في داخله، وتحولّ من شاب مناضل مستعدّ لدفع الغالي والنّفيس من أجل حرّية أرضه، بغية تطهيرها

من دنس المحتل الغاشم، إلى بائع قهوة وشاي لا يُحرّك في الأرض ساكنًا، فخرج من سجنه كسير الرّوح، باهت الملامح، وهذا ما أظهره الرّوائي في تصويره للموقف، حيث قال: «أُفرج عنه من سجون الاحتلال... لا أحد يعلم ما الذي اعتراه عندما قال لأُمّه سمّيّة (أم مهدي) وللمخيم والأزقة طفله الصّغير وقبر أبيه وقبر زوجته نورة، عندما سألوه: والآن ماذا ستفعل بعد ذبول الانتفاضة وحلول السّلام علينا.. فأجابهم بصوت مبجوح (قهوة وشاي)»¹. وتواصل الموقف حين أصيب الجميع بالخيبة مما قاله (مهدي) المناضل المحارب، متجاهلين تهاونهم وغدرهم له ولوطنهم حين زُجّ في السّجن؛ وهذا ما يظهر في خذلان «أصدقائه ورفاق دربه في النّضال والانتفاضة له، حيث انشغلوا بأبّتهم الجديدة التي تراقصت فوق مائدة السّلام المختلّ، وسلطة الوهم والحيرة، خذلوه حين تخلّوا عن رعاية أسرته. لا قد خُذلت أكثر عندما انكسر قلبه الثّائر حين اشترط عليه أعداؤه وسجّانه قبل الإفراج عنه مثله مثل الأسرى الآخرين المفرج عنهم التّوقيع على تعهّد يُنبذ فيه العنف، متعهّدًا بعدم العودة إلى ممارسة العنف واحترام بنود اتفريقيّة أوسلو الموقّعة ما بين منظمة التّحرير الفلسطيني ودولة الكيان الصّهيوني»².

2. صراع نور الهوياتي:

لينتقل الرّوائي بين سطور الرّواية ويصوّر صورة أخرى من النّزاع؛ صورة (نور) الشّاب الفلسطيني الذي مكنته ملامحه ولغته العبرية من تجاوز حدود المحظور؛ وهذا بحدّ ذاته شكّل له أزمة هوياتيّة فكان يحمل روحا عربيّة ممزوجة بملامح عربيّة سهّلت له الدّخول إلى الأرض المحتلّة على عكس غيره من بني جنسه ذوي السّمات العربيّة الأصليّة، وهذا ما صوّره الرّوائي حين قال:

¹ - الرّواية، ص30.

² - الرّواية، ص33.

«كانت المرّة الأولى التي اكتشف فيها مزايا ملامحه، عندما داهمت قوّة من الشرطة الصهيونية ورشة البناء التي كان يعمل بها برفقة صديقه مراد... في مستوطنات (ليتسيون) الواقعة في شمال شرق تل أبيب... لتدقيق تصاريح العمّال وهويّاتهم وإلقاء القبض على العمال المتسلّين الذين يعملون دون حيازتهم تصريح عمل... وكان نور من الفلسطينيين التعساء الممنوعين من تصاريح العمل في السّوق الصّهيونية، إما بسبب اعتقالهم في وقت سابق على خلفية مقاومة الاحتلال، أو اعتقال أحد ذويهم...، كان على وشك التّوقف وتسليم نفسه لقبضتهم عندما التقت نحوه بعفويّة شرطيّ دقّق في وجهه للحظات، ثمّ حيّاه بالعبريّة وعاد من جديد للتدقيق في تصريح أحد العمّال»¹، فلو لم يكن (نور) يحمل ملامح "اشكنازيّة" لما استطاع الخروج من هذا الموقف سليماً، ولا حتّى العبور إلى المستوطنة الصّهيونيّة، فهل أصبح الشّكل أو الملامح بطاقة عبور للأرض، بطاقة عبور للوطن المحتلّ والمسلوب، وهذا ما جسّده الرّوائي في الرّواية حيث سلّط الضّوء على هذا الأمر الذي يبدو، رغم تفاهته، أمراً مهمّاً ذو رمزيّة عميقة، كون هذه السّمات جزء من الهويّة الشّخصيّة، جزء من هويّة دينيّة عرقيّة وثقافيّة، لكن عن أيّ هويّة نتحدّث؟ وعن أيّ بلد ذاك نتكلم، بلد مسلوب، وإن صدقنا القول بلد مسروق، استساغه بعض من شتات الأرض وفرضوا سلطتهم على تلك الأرض الطّاهرة العذراء، لتحول بين أيديهم رمزا للظلم والقهر.

وإذا أشرنا إلى عنصر اللّغة كمكوّن أساسي في تشكيل الهويّة الفرديّة والجماعيّة للأفراد، يجب أن ننطلق من أنّ «اللّغة تمثّل عنصر الانتماء فإننا نحدّدها كمكوّن أساسي وحاسم من مكوّنات الهويّة لأنّ اللّغة ليست مجرد مصفوفات من الألفاظ والكلمات الخاضعة لبنية ميطالغويّة نحوية مضبوطة ومنطقيّة، وإنّما هي وعاء الثّقافة والفكر والخبرة الدّاخليّة المشتركة، وهي بنية ذهنيّة

¹ - الرّواية، ص42.

وشعوريّة، وهي أيضا تمثّل اللسان الناطق والأداة الحاملة لمضامين ومفاصل هذه الثقافة وهذا الفكر، ليس بإمكان أيّ أحد على الإطلاق أن يتموقع خارج اللّغة»¹. والمقصود بهذا أننا حينما نربط اللّغة بعنصر الانتماء فإننا لا نتحدّث عن مجرد وسيلة للتّخاطب، بل نرتقي بها إلى مستوى أعلى كونها المكوّن الأساسي في تشكيل الهوية الفرديّة والجماعيّة، فاللّغة ليست مجرد منظومة من القواعد النحويّة والبلاغيّة، بل هي وعاء شامل يحتضن الثقافة والفكر. ومن هنا نستنتج أنّه لا يمكن لأيّ فرد أن يتموضع خارج اللّغة، كونها الإطار الذي يتشكّل داخله الوعي والهويّة.

وفي محور آخر أشار الروائي لتعلّم (نور) للّغة العبريّة، أو اللّغة الخائبيّة كما يُسمّونها، ليس حبًا فيها وإنّما كونه سائرا على مبدأ "من تعلّم لغة قوم أمن شرّهم"، فكانت هذه اللّغة المسلك الذي مكّنه من تحقيق مسعاه المجدلي والدخول إلى جوف ما يُدعى بمستوطنة الكيان، فلبس ثوبا غير ثوبه وتلقّن لغة غير لغة أهله، لكنّه استرجع شتات ذاته وهويّته بعد لقائه ب (سماء)، التي أعطته درسا سيظلّ راسخا في عقله وفؤاده طالما مازال حيّا يُرزق، علّمته درسا عن الوطنيّة، عن الانتماء، وعن الإيمان بأنّ الحرّيّة ليست حلما مستحيلا، بل هي واقع سوف يتحقّق، طالما مازال هناك مناضلون يحاربون من أجل استرجاع هويّتهم وأرضهم، هذا ما أدركه (نور) في خاتمة الرّواية عندما مرّق هويّة (أور شابييرا)، هويّة غريمه التي ارتداها على مّصد، وتمتم بكلمات عربية خرجت من روحه معبّرة عن وطنيّته التّامة وخروجه من هاوية الهويّة الزّرقاء، وهذا ما صوّره الروائي قائلا: «ينتشل بطاقة الهويّة المزوّرة من جيبه، هويّة "أور شابييرا"، يستعرضها أمام ناظري "سماء"، ثمّ يُمزّقها بعنف

¹ - سعيد أراق، قضايا فكرية ومعاصرة (مشارف المعنى واللامعنى)، ص38.

ليُلقحها بالقلادة. لا ينبس ببنت شفة، تدمع عيناه، يُخرج هاتقه من جيبه، يُعيد برمجته إلى اللغة العربية¹.

صوّر الروائي صراع الهوية أيضا لدى (نور) وحالة الشتات والاغتراب والصّياح، التي يعيشها، وكلّ هذه المواقف تتمّ عن تمزّق داخلي يعيشه هذا الأخير بين الانتماء الثقافي، والبحث عن الذات في عالم مغاير يرفض الاختلاف، بدأت معاناته من اليوم الذي وجد فيه تلك اللعنة الزرقاء التي غيرت مجرى حياته بشكل جذريّ، ومنحته تجربة قد تكون مستحيلة بالنسبة إلى أيّ فلسطيني آخر، لكنّها في نفس الوقت استنزفت روحه وأدخلته في دوامة من رفض الذات والاستنكار وتأنيب الضمير، فكانت أول المواقف التي اضطرّ (نور) لمواجهة واقع التجربة التي هو بصدد الخوض فيها، كانت عندما باغته الشيخ (إبراهيم) فقال له: «...وكيف ستدخل الحرم؟ بأيّ هيئة وهوية.. نور أم أور»²، فإذا دخل بهيئة (نور) سوف يكون عرضة إلى المتاعب الأمنية مع الكيان الصهيوني، الذي سلب الأرض وشرّد النّاس، واغتصب حرمة الدّيار، وإن دخل بشخصيّة (أور) فسوف يكون في عين نفسه وفي عين أيّ فلسطينيّ أبيّ خائناً باع وطنه والتحف ثوب الغدر والخداع والنّجس.

ومن جانب آخر، كان (نور) يعيش أزمة نفسية حادة بين هوية مكتسبة وأخرى أصليّة، في خضم جعل المكتسبة الواجهة التي يُقابل بها المحتل وهو داخل أرضه، فكان يعيش كلّ مشاعر الهلع والخوف من اكتشاف أمره، ومشاعر الكره والاحتقار لنفسه حينما كان يتفوّه بلغة غريمه، ويتبنّى أفكاره فقط ليضللّ ويُغبّش هويته الأصليّة، فصوّر الروائي في موقف من المواقف ضعف (نور) وعدم قدرته على التصريح بهويته وأصله وهو واقف جنب (آيلا) التي تُدنس خريطة وطنه بتعليقها على صدرها،

¹ - الرواية، ص 238.

² - الرواية، ص 111.

فكان يرى خريطة فلسطين، خريطة وطنه المسلوب المغتصب متدلّية على نهدِها، وكأنه إشعار صريح بأنّ هذه الأرض لنا، هذه الأرض التي وطأت أقدامهم عليها لبضعة عقود استساغوها وجعلوها ملكا لهم من دون وجه حقّ، سلبوا عُذريّتها ودنّسوا عَقَتها، وهذا ما بيّنه الرّوائي في حوار دار بين (نور) و (مراد) في تسجيل صوتي عندما انزوى وتوقع على روحه العليلة داخل غرفته، وبدأ يصف لـ (مراد) القابع داخل غياهب السّجن غضبه وإحساسه بالضعف وعدم القدرة على تغيير الواقع المفروض عليه وعلى آلاف الفلسطينيين غيره فقال: «...قلادة من الفضة لخريطة فلسطين، تخيل يا مراد أنها ذات الخريطة التي أرسلتها أنت لي من سجنك وقد نحتّها من حجرة من لعبة الدومينو المسلية.. كدت أنتزعها من عنقها صارخا هذه لي. هذه البلاد لي.. كيف ترتدين ما ليس لك»¹.

وفي موضع آخر تعالت أصوات التّراعات بين (نور) و (أور)، فقال الأوّل للثّاني:

«وما حاجتي لكلّ تراهاك هذه؟ تكفيني مزيالك.. ملامحك.. اسمك الزّاخر بالهوية الاشكنازية الصّهيونية. أريد أن أدرك حقوقك التي اخترعتها أنت فوق هذه الأرض، حقّك بالوجود.. بالحريّة.. بالحركة.. بالاستيطان.. بالاحتلال.. بالاعتقال.. بالاغتيال.. حقّك بتشريد ومصادرة ومطاردتي، وإقصائي، وتهميشي.. أريد أن أتعلّم الأسماء الصّهيونية كلّها لأقوى على مواجهتك.

- على رسلك أيّها الحاقد، أنا لم أقتل فلسطينياً في حياتي. صحيح أنني خدمت في الجيش وفي وحدة مختارة كما خمّنت.. آيلا.

- لم تسمح لك الفرصة لتقتل.

- بلى.. كلا.. اسمع أنا لم أقتل أيّاً منكم صدّقني.

¹ - الرّواية، ص 117.

- ما الجدوى من هذا؟¹

واستمرت معاناة (نور) مع الهتافات التي تعالت أصواتها داخله، أصواتٌ وضجيجٌ لا يستطيع نقلها للواقع؛ فكان يقف بكل ثبات انفعالي أمام الجميع لكنه كان يحترق من الداخل، ليسقط أول ما ينفرد بنفسه ويبدأ بالتمتمة كالمجنون أحيانا. ويناقد (مراد) الذي لم يره منذ سنين طوال أحيانا أخرى، فكان يقضي ساعات وهو يهمس بالعربية ويخوض في أحاديث سياسية ودينية وثقافية مع صديقه (مراد)، أحاديث تساءل فيها عن هويته وتاريخه المنهوب. وكان دائما يُبرئ نفسه من تهمة التطبيع التي تتخر جسده، رغم أنه لا يوجد أحد يتهمه بها. تواصلت أوصل الحوار بينهما فقال:

«- ألم تقل لي إن الشعوب تلتحم بالنضال، والشعب ينتفض مندرجا بكل قطاعاته وشرائعه وطبقاته بالنضال والاشتباك ضد المستعمر.. لأجل ثمة شعب أو بعض شعب أو بقايا شعب تضامن مع ذكرى النكبة الماضية بإطلاق أكثر من سبعين بالونا أسود في سماء رام الله ومخيماتها.

- ألم يصلك أي من هذه البالونات أيها اللاجئ الأسير مراد؟

- آه لقد نسيت أن السجن لا سماء له.

- على أي حال يا صديقي عندما سألت نفسي بأي هيئة سأتضامن، تراجعته عن عزمي التضامني قانعا بالحجرة والمعهد والطريق الواصل بينهما، يُحييني انتقالي اليوم عصرا إلى كيبوت مشمار هعيق؛ فلو أنني تضامنت بوصفي عربيا فلسطينيا بهيأتي المستعادة، فسيتم اعتقالني بعد التتكيل بي طبعا، وإشباعي شتما ولكائتم، ومن ثم قذفي إلى القدس وحدودها... وإذا ما تضامنت بهيئة أور وقناعه، فأنتني سأعاني من هجوم عنيف من جماعات المستوطنين المتطرفين، الذين يلاحقونني بتهمة الخيانة

¹ - الرواية، ص 133.

والعداء لليهودية الدولة وتوراتيتها. فيصرخون لاعنين: أنت يساريّ معاد لإسرائيل وربّ إسرائيل، وهذا ما سيثير بدوره الانتباه إليّ. قد يلتفت الجميع حولي من متضامنين، مستوطنين، صحفيين، قوّة الشّرطة، وحراس الحدود، وأهالي (الشيخ جراح) من مقدسيّين معذبين ومهجّرين، لكي يسأبوني سؤالاً واحداً أوحد:

- لكن قل لنا: من أنت بحق السّماء؟!¹.

3. صراع الوجود والانتماء:

وأكثر من جسّد الرّوائيّ فيه صورة الوطنيّة والتّمسك بالقيم الدّينية والنّفافية، هي شخصيّة (سماء)، كونها تحمل الرّوح الوطنيّة والانتماء الفلسطينيّ الذي لم تخل من إشهاره للعلن، حتى وهي قاطنة داخل أراضي المحتل وتحمل جنسيّته، ولم تترك (سماء) أيّ مناسبة تمرّ دون الاعتزاز بعروبيتها الطاغية الصّارخة على اسمها وملاحمها، وهذا ما أثار في كثير من المواقف غيض (أيلا) التي عبّرت عن استيائها من (سماء)، وهذا ما صوّره الرّوائيّ في مقطع من مقاطع الرّواية، حيث يقول: «تدقّ الوقت في حواراته العبريّة مع آيلا وإعرابها الدائم عن غيضاها وامتعضها من حضور هذه العربيّة التي لا تسأم من الحديث عن السّياسة ومعاني الهويّة»².

وفي سياق آخر كذلك يُشير الرّوائيّ إلى الكراهية التي تُكنّها (أيلا) لـ (سماء) رغم أنّه لم يحدث أي تواصل مباشر بينهما باستثناء تلك النظرات المتعالية المتكبّرة. وهذا يُوحى لنا بأنّ هذه الكراهية ليست مبنية على معرفة حقيقيّة بل على انطباعات سطحية منطلقة من حسّ صهيوني غير

¹ - الرّواية، ص39.

² - الرّواية، ص185.

متقبّل للآخر ولهُويّته؛ «تكره سماء مع أنّها لم تتبادل معها كلمة واحدة حتى الآن! فقط بعض نظرات متعالية ومنتكّبة كانت ترميها بها في الوقت الذي لم تكن فيه سماء»¹.

واستمرت (سماء) بالدفاع والإعلان عن هويتها بشكل صريح ومن دون خوف؛ وهذا ما صوّره الروائي في موقف وقفت فيه هذه الأخيرة بكل شموخ وقوة مسترسلة في الحديث عن هويتها فكانت تقول:

– «مارك.. كوني أعيش هنا فإن هذا لا يعني أنّي إسرائيلية أو يهودية كلا.. فهناك فرق شاسع بين كوني عربية فلسطينية وكوني إسرائيلية»².

وقف (نور) متصلّباً في مكانه وكل شبر من روحه، وكل خلية من جسده تناضل وتنادي تدفعه للحديث وشرح ما قالته (سماء) والبوح بهويته التي أصبح يعتز بها، ويتمنى لو كان يملك ربح انتماء (سماء) وقوتها وشجاعتها. وهذا ما صوّره الروائي في هذا المقطع حيث يقول: «وكاد نور أن يخرق حوارهما ليشرح لمارك ما الذي تقصده سماء، فردعه أور عن مسعاه هذا هامسا بأذنه:

– وبأي صفة ستتدخل بالحديث أيها الأحمق، بصفتك أور أم نور؟

– اصمت ودعني أحسم المسألة.

– أيّ مسألة؟!!

– هل ستقول له: إنّها لا تعترف بوجود إسرائيل كدولة على الرّغم من حيازتها على الجنسيّة الاسرائيليّة؟ ماذا عنك أنت أيضا.. هل ستقول له: إنّك فلسطينيّ ولكنك تلعب لعبة الأقنعة،

¹ – الرّواية، ص186.

² – الرّواية، ص176.

في الليل نور وفي النهار أور؟¹. لتخرجه (آيلا) من قلب ضياعه قائلة: « ما بال هذه

العربية يا أور كأنها تقول سوءا عن إسرائيل لهذا الكندي الأحمق»².

وكل هذه النظرات الحاقدة التي تأكل وتتخر (سما) لم تمنعها من القول بصوت عال وواثق

«أشهرت أمام الملأ الأجنبي هويتها الحقيقية، وأصلها العربي الفلسطيني دون أن تخشى على حق

وجودها على هذه الأرض لومة لائم، أو غضب صهيونية مثل آيلا أو مثله هو أور ونور اللذان

يحقدان معا»³.

IV. هوية الرواية والسارد:

1. رصد تاريخ مريم المجدلية:

تلعب شخصية (مريم المجدلية) في الرواية دورا رمزيا مهما؛ حيث يستعملها الكاتب (باسم

خندقجي) ليعبر عن معاناة المرأة في التاريخ وكيف تم تهميش صورتها وتشويهها، ومن خلال هذه

الشخصية يطرح الكاتب أسئلة عميقة حول الهوية خاصة في ظل محاولات طمس الحقيقة والتاريخ،

ووجودها في الرواية كان له بعد رمزي مرتبط بقضية الهوية الفردية والجماعية، ونجد أنّ الروائي

يستعمل رمز (مريم المجدلية) للدلالة على شتات الهوية التي كان يعاني منها (نور)، فكان يرمي

أحمال وأعباء هويته عليها في أركان الرواية؛ فنجد في كل مرة يعطي تصورات مختلفة (مريم

المجدلية) داخل الرواية، وهذا ما يظهر في أول سطور روايته، حيث استهل كلامه بالحديث عن

فشله في الحصول على السيرة التاريخية الصحيحة لـ (مريم المجدلية) فقال: «إثر فشلي الذريع

¹ - الرواية، ص 176.

² - الرواية، ص 176.

³ - الرواية، ص 177.

ومحاولاتي اليائسة في تقصي وإثبات السيرة الذاتية لـ (مريم المجدلية) إبان كرازة يسوع الناصري ابن مريم في فلسطين الرومانية، وبعد فترة طويلة من الانقطاع والاحباط واليأس، أن لي ألا أحيل جهدي الدؤوب الذي مارسته على مدار أكثر من خمس سنوات في عالم المجدلية التاريخية والديني السري إلى هباء منثور، لا يمكنني القيام بهذا، لن أسمح "لدان براون" وكلّ الكؤوس المقدسة التي شربت بصحة رواية "شيفرة دافنشي"، يتناول على المجدلية وتراهااتهم ويسرق سيرتها مني¹.

2. الرؤى المتنوعة لرمز المجدلية:

ثمّ يبدأ (نور) في محور آخر بإعطاء تصوّر أولي للرواية التي سوف يكتبها مع (مريم المجدلية)، والذي عزم على ربطها بثورة "باركوخبا" التي تُعدّ «الحرب الثالثة والأخيرة ما بين الشعب اليهودي والإمبراطورية الرومانية، حيث أعقبت فترة طويلة من التوتّر والعنف المتصاعد بين الطرفين. شهدت نروتها خلال الانتفاضة اليهودية الأولى (66-70م) التي انتهت بتدمير الهيكل الثاني لليهود»². وفي هذا السياق يقول (نور): «يجب أن تُشكّل قاعدة معرفية حول ثورة "باركوخبا"، أحد الأطر الأساسية للجانب التاريخي في الرواية.

وأما التصور العام للرواية، فهناك عدّة تصوّرات وأفكار أولية منها: قد يكون هناك كنز مدفون يخصّ مريم المجدلية! إمّا في قريتها مجدلة، الواقعة على الشاطئ الغربي لبحيرة "طبرية"، أو في كنيستها الواقعة على سفح جبل الزيتون، والكنز عبارة عن صندوق عاجي صغير الحجم يحتوي

¹ - الرواية، ص11.

² - محمد أمين، ثورة باركوخبا آخر الثورات اليهودية على الرومان، الباحثون المصريون، 2019.

على تماثيل صغيرة لشياطين المجدلية السبع، أو على قارورة عطر الناردين الفاخر الذي سكبته على قدمي يسوع، فقد يحتوي الصندوق، أيضا، على صفائرها التي مسحت بها على قدمي يسوع»¹.

ومن التّصوّرات الأخرى التي وضعها (نور) لرواية (مريم المجدلية) التي تطرّق فيها إلى قضية الصندوق العاجي الذي ابتكرته مخيلته فيقول: «الصندوق العاجي تناقلته أجيال على مدار التاريخ، والبداية كانت مع معتق لديانة يسوع التي كانت سرّية في بداية عهدها في الحقبة الرومانية، وهذا المؤمن كان تلميذا ومريدا للمجدلية، لا بل كان يعشقها في سرّه بعد صلب يسوع دون أن تعلم هي بأمر عشقه لها، ثمّ تلقّن هذا المريد وصايا يسوع السريّة وتعاليمه ممّا أثار احتجاج رسول يسوع الأهم "بطرس"، فخشيت المجدلية على سطوة بطرس لتعتزل في كهف سرّيّ إمّا في جبل الزيتون، أو ترحل إلى الجليل لتقيم بكهف في جبل الكرمل»². وما يجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ الأحداث أو صورة الوقائع التي يطرحها (نور) ماهي إلاّ تخيلات من صنع خياله يريد بها تحقيق سبك درامي وملحمي للرواية.

3. تضارب هوية الرواية والسارد:

بما أنّ الحديث عن (المجدلية) سوف يطول، كون الروائي (باسم خندقجي) حوّل معتقله إلى مخبر يرصد فيه أحداثا تاريخية ممزوجة بمسحة من الخيال المستحسن، وكل هذه التّصوّرات المتضاربة والمتباينة قد تكون لها علاقة بقضية الهوية الفلسطينية، واستعمال رمز (مريم المجدلية) ما هو إلاّ تصوير حي لهذا التّضارب، فنجد (نور) يضع ويخلق صفة الشّتات في قضية (مريم المجدلية)، الشّتات الذي يُعاني منه هو في هويته ووطنه. فنجد أنّ الروائي قد بدأ روايته ومسعاها

¹ - الرواية، ص36.

² - الرواية، ص49.

الرّوائِي منطلقاً من رصد تاريخ مريم المجدليّة المشتّت، ليجد نفسه يغوص في شتات هويّته هو، هويّته المسلوبة والمطموسة، فتغلّب صوت السّارد على صوت الرّوائِي، وهذا ما أشار إليه قول (ريكو) حينما قال: «طرحت بعد رحلة طويلة من خلال السرد الخيالي السّؤال عما إذا كانت هناك أي تجربة أساسيّة يُمكن أن تدمج هذين النّوعين «(الهويّة الذاتيّة، الهويّة السردية)...»، ثمّ توصلت إلى فرضيّة مفادها: أنّ تكوين الهويّة السردية سواء أكان لشخص أم جماعة تاريخيّة كان الموقع المنشود لهذا الانصهار»¹، والمقصود بهذه المقولة أنّ هناك تجربة أساسيّة تجمع بين النّوعين الذي سبق وأشرنا إليهما، وهذه التّجربة تتمثل في لحظة تأليف أو تكوين القصة عن أنفسنا أو عن جماعاتنا، حيث نشعر في هذه اللّحظة بشيء من الانسجام وبين ما نحن عليه فعلاً، وبين الحكاية أو القصة التي نؤلّفها. أي أنّ الإنسان عندما يحاول أن يفهم نفسه أو تاريخه من خلال قصة تصبح له هذه الأخيرة جسراً يربط بين سؤال جوهرِي هو، من أكون؟ وبين، ما معنى أن أكون؟

يتواصل حديث (نور) عن (مريم المجدليّة) وسعيه وراء شعاعها الذي يتدفّق من حسّه الرّوائِي العالِي، ومعرفته الواسعة بالتّاريخ وعلوم الآثار، لكنه يصل في الأخير إلى قناعة تامّة بأنّ البحث عن تاريخها فيه شيء من الاستحالة، لكن الإيمان بها وبوجودها مربوط بشيء آخر من العقلانيّة، حيث يقول: «إنّ إثبات تاريخ مريم المجدليّة به شيء من العبث.. غير أنّ هذا لا يعني عدم الإيمان بوجودها إلى جانب اليسوع في الحديث الإنجيلي ولكن كما يقول "أغستين" (أنا أوّمن لأنّه عبث)»². وعليه كان في الرّواية صراع في هويّتها هي ذاتها، فالسرد واقع بين موضوعين رئيسيين، لكلّ منهما هويّته الخاصّة به، فالأول يتمثّل في البحث عن أسطورة التّاريخ (مريم المجدليّة)

¹ - سعيد الغنيمي، الوجود والزّمان والسردية فلسفة بول ريكو، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999، 251.

² - الرّواية، ص112.

في صفحات الكتب والآثار، لاسيما أنّ الشخصية الرئيسية في الرواية (نور) باحث في ذلك التخصّص، بينما تسلك هوية الرواية مسلكا آخر عند عثور (نور) على بطاقة الهوية الإسرائيلية، ومن هنا نجد أنّ للرواية منحيين، يتنافس كلّ منهما على احتلال صفحات الرواية. لكن في آخر المطاف نلمس طغيان الهوية الفلسطينية، التي تُمثّل الواقع المعيشي، الزّاهن لشخصية (نور) وللرواية بالكامل، حيث عادت الرواية إلى أصلها، وغاب الحديث عن أسطورة (مريم المجدلية) التي أرادها الكاتب كمنطلق سردي تحركت بها الرواية إلى أبعد حدودها.

وفي سياق آخر أشار (نور) قائلا: «وعليه لن يتصدى نصّي لنقاش تاريخية المجدلية من عبثها، بل إلى معالجة بيانات تاريخية ودينية خاصة بها، وإحالتها إلى نص روائي شائق ومثير.. وبقدر ما تعمّقت أكثر بتفاصيل تلك الحقبة التاريخية، بقدر ما تهت ودخلت في عوالم ودهاليز خفية ومخيفة»¹.

وفي الأخير يمكن القول إنّ مسعى (نور) المجدلي والبحث عن الهوية الحقيقية لرمز روايته، لم يكلل بالنجاح كونه خرج من المستوطنة الإسرائيلية التي دخلها بقناع مزيف دون إجابات عن تساؤلاته الكثيرة التي كانت تراود ذهنه، لكنّه خرج بشيء أهمّ وهو هويته العربية الأصلية، هويته الفلسطينية البعيدة عن شتات (مريم المجدلية).

¹ - الرواية، ص 113.

خاتمة

- انطلاقاً من بحثنا هذا المعنون بـ "متخيّل الهوية في رواية قناع بلون السماء" (لباسم خندقجي)، توصلنا إلى مجموعة من النتائج الشاملة التي جاءت كالتالي:
- بالرغم من أنّ العمل الروائي يقوم على عنصر المتخيّل، إلا أنّه لا يخلو من مضامين إنسانية وواقعية، تحمل في طياتها رسائل ذات أبعاد هادفة، يتناول من خلالها الكاتب قضايا سياسية أو اجتماعية أو دينية أو هوياتية، وغيرها من المشكلات التي تُعبّر عن هموم الإنسان ومجتمعه.
 - عبّرت الرواية عن موضوع مهمّ، وهو "مسألة الهوية"، حيث صوّر لنا الروائي انطلاقاً من موضوعها هذا معاناة الشعب الفلسطيني مع الاحتلال الصهيوني العاشم.
 - تمثّل الهوية من المنظور الفلسفي سؤالاً عميقاً يتّصل بالوجود، حيث أنّ الهوية ليس معطى ثابت، بل مشروع يتكوّن ويُعيد تشكيله باستمرار.
 - من المنظور التاريخي نجد أنّ الهوية ليست فقط ما يُميّز الفرد أو الجماعة في الحاضر، بل هي امتداد للذاكرة الجماعية التي تشكّلت عبر الزمن، فالتاريخ يغذي الهوية ويمنحها مضامينها الرمزية.
 - صوّر الروائي العُقد والمشاكل النفسية التي طغت على شخصية بطل الرواية، والصراع بين هويته الأصلية وهويته المكتسبة.
 - نالت الهوية والذات اهتماماً كبيراً من قِبَل الدارسين خاصة عند علماء النفس والاجتماع.
 - الهوية من المواضيع التي لاقت إهتماماً كبيراً في الأوساط الأدبية والفنية، كونها قضية وجودية شائكة تحمل أبعاداً إنسانية تنقل الواقع الاجتماعي.

خاتمة

- وُقِّد الرّوائي في اختيار عناصر المتخيّل في هذه الرّواية، واختيار العلاقات القائمة بين العناصر السّردية المتعدّدة.

- عكست الرّواية حالة الصّراع المحتدم الذي يعيشه الأنا المختلف عن الآخر.

- تمظهر ملامح صراع الهوية بشكل لافت داخل الرّواية، سواء في الموضوع الظاهر والواضح الذي عبّر عنه الكاتب، وأيضا من خلال صراع الهوية في الرّواية بحدّ ذاتها، في قالب سرديّ عظيم ومتميّز.

وفي الأخير، يبقى هذا البحث محاولة متواضعة للإسهام في فهم مسألة الهوية بما تحمله من تعقيدات وتشابكات ثقافية، وتاريخية، واجتماعية. ورغم ما توصلنا إليه من نتائج، فإنّ الهوية تبقى موضوعا مفتوحا للنقاش، متعدّد الأبعاد، يتطلّب المزيد من التعمّق والدراسة خاصّة في ظلّ التحوّلات المتسارعة التي يعرفها العالم اليوم، لذلك نأمل أن يُشكّل هذا العمل منطلقا للأبحاث الأخرى التي قد تتناول الرّوايا التي لم يتسنّ لنا التطرّق إليها.

قائمة المصادر

والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش.

➤ المصادر:

1. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (خ، ي، ل)، مكتبة الشروق الدولية، ط4، القاهرة، 2004.
2. أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، مادة (خ، ي، ل)، دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1994.
3. أبو القاسم جار الله محمود عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، مادة (خ، ي، ل)، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، لبنان، 1998.
4. باسم خندقجي، قناع بلون السماء، دار نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، قسنطينة، الجزائر، 2023.
5. عبد القاهر الجرجاني، التعريفات، تح عبد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر.

➤ المراجع باللغة العربية:

1. أحمد برقاي، الأنا، التكوين للتأليف والترجمة للنشر، د ط، دمشق.
2. أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته تطوره وقضاياها، ديوان المطبوعات الجامعيّة، د ط، الجزائر، 2007.
3. أمنة بلعلي، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط2، 2000.
4. البشير ربّوح، السّؤال عن الهوية (في التأسيس والنّقد والمستقبل)، دار لامان، ط1، الرباط، 2016.

قائمة المصادر والمراجع

5. بوشعيب الساوري، تمثيلات الهوية والآخر قراءة في نصوص روائية قراءات مغربية (الهوية والتخييل في الرواية الجزائرية)، رابطة أهل العلم، ط1، 2008.
6. جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1992.
7. جلييلة المليح الواكدي، مفهوم الهوية (مساراته النظرية والتاريخية في الفلسفة، في الأنثروبولوجيا، في علم الاجتماع)، مركز النشر الجامعي، تونس، 2010.
8. حسام الدين علي مجيد، انبعاث ظاهرة الهويات، قراءة في منظور المفكر الكندي تشارلز تايلور، موقع: مؤمنون بلا حدود، 22-12-2016.
9. حسين خمري، فضاء الرواية والمتخييل (مقاربات في الرواية)، منشورات الأخلاق، ط1، 2002.
10. حسين خمري، فضاء المتخييل، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2001.
11. رحيم أبو رغيف الموسوي، الدليل الفلسفي الشامل، ج2، دار المهجة البيضاء، ط1، بيروت، 2013.
12. رشاد عبد الله الشامي، إشكالية الهوية في إسرائيل، دار رشاد عبد الله الشامي، 2015.
13. رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية.
14. سعيد أراق، قضايا فكرية معاصرة (مشارف المعنى واللامعنى)، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، عمان، 2016.

15. سعيد الغنيمي، الوجود والزّمان والسردية فلسفة بول ريكو، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999.
16. عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج2، تح: عبد الله محمد درويش، دار يعرب، ط2، 2004.
17. عبد العزيز بن عثمان التويجري، التّراث والهويّة، منشورات المنظمة الإسلاميّة للتربية والعلوم الثقافية، الرباط، المغرب، 2011.
18. عبد الله العروي، الأيديولوجيا المعاصرة، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 1999.
19. عثمان موافي، في نظريّة الأدب (من قضايا الشّعر والنّثر في النّقد العربي)، ج1، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر، 2007.
20. محمد أمين، ثورة باركوخبا آخر الثّورات اليهوديّة على الرّومان، الباحثون المصريّون، 2019.
21. محمّد عابد الجابري، مسألة الهويّة، العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط3، بيروت، 2006.
22. محمّد معتصم، المتخيّل المختلف (دراسة أولية في الرّواية العربيّة المعاصرة)، دار لامان، ط1، الرباط، 1435هـ/2014م.
23. مرشد أحمد، البنية والدّلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، ط1، 2005.
24. مليك دريد، الوجيز في المتلازمة النّفسيّة النّادرة، دار خيال للنّشر والترجمة، برج بوعريّيج، الجزائر، 2024.

25. نجيب الكيلاني، حول المسرح الإسلامي، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، لبنان، 1987.

26. يوسف الإدريسي، الخيال والمتخيل في الفلسفة والتقد الحديثين، مطبعة النّجاح الجديدة، ط1، 2005.

➤ المراجع المترجمة:

1. بول ريكو، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005.

2. جان بول سارتر، الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهرانية، تر: عبد الحميد بدوي، منشورات دار الآداب، ط1، بيروت، 1922.

3. ريك اريكسون، الهوية وأزمة الشباب، تر: محمد النويهي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1986.

4. مارتيامن، الهوية والعنف، تر: سخر توفيق، عالم المعرفة، الكويت، 2008.

➤ المجلات العلمية:

1. سامية إدريس، صور الصّراع في رواية "ص" لزياب بوكفة - قراءة في المضمون -، مجلة الخطاب، جامعة عبد الرّحمن ميرة، مج 13، ع1، بجاية.

2. شرقي رحيمة، الهوية الثقافيّة الجزائريّة وتحديات العولمة، جامعة قاصدي مرياح ورقلة (الجزائر)، مجلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية، العدد 11، جوان 2013.

➤ الرسائل الجامعية:

1. بوعيشة أمال، جودة الحياة وعلاقتها بالهوية النفسية لدى ضحايا الإرهاب بالجزائر، مذكرة دكتوراه، إشراف: جابر نصر الدين، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2013/2014.

2. السعيد بخليل، الحسّ المأساوي في الشعر الجزائري القديم، (عصر الدولة الحماديّة أنموذجاً)، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2006.
3. فاطمة سعيد أحمد حمدان، مفهوم الخيال ووظيفته في النّقد القديم والبلاغة، رسالة دكتوراه في النّقد والبلاغة، جامعة أم القرى، السّعوديّة، 1989.
4. فايزة بن خليفة، مصطلحات الخطاب والتمخيل عند محمّد لطفي اليوسفي، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللّغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2001-2002.

الملاحق

نبذة عن المؤلف¹:

(باسم خندقجي) هو كاتب وأديب فلسطيني ولد في 22 ديسمبر 1983 في مدينة "نابلس"، اعتقل في عام 2004 على يد قوات الاحتلال الإسرائيلي أثناء دراسته في جامعة النجاح الوطنية، حيث كان يدرس العلوم السياسية، وحكم عليه بالسجن المؤبد ثلاث مرات بتهمة تتعلق بنشاطه في المقاومة. ومع ذلك لم تقيد قضبان السجن قلمه، فواصل الكتابة والابداع من خلف الجدران.

له عدد من الأعمال الأدبية أبرزها "قناع بلون السماء"، والتي كتبها من داخل السجن، وتعد شهادة أدبية وإنسانية على واقع الأسرى الفلسطينيين. رغم وجوده خلف القضبان، استطاع (خندقجي) أن يحول السجن إلى مساحة للإبداع والتأمل، فكتب وأصدر عدة أعمال أدبية أثارت اهتمام النقاد والقراء على حدّ سواء، منها دواوين شعرية وروايات مثل:

– مسك الكفاية: سيرة سيدة الماء.

– أنفاس قصيدة ليلية.

– نرجس العزلة.

– قناع بلون السماء.

تأثر بوحشية وعنف قوات الاحتلال خلال الانتفاضة الأولى، وتركت فيه أثرا كبيرا وحددت توجهاته السياسية، إذ انظمّ لصفوف حزب الشعب الفلسطيني الاشتراكي وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاما.

¹ – موقع ويكيبيديا، Wikipedia.com

الملاحق

يمتاز أسلوبه الأدبي بلغة شاعرية رفيعة، وعوالم رمزية تتخطى الزمان والمكان، حيث يستلهم من تجربة السجن وعذابات القيد صورا إنسانية عميقة، ويعرف (خندقي) التزامه بقضايا الوطن والحرية والعدالة، وقد تحولت كتاباته إلى شهادة حية على قدرة الإنسان على الابداع والتحدى حتى وهو يعيش أقسى ظروف القهر والعزلة.

رواية "قناع بلون السماء" هي عمل أدبي يفيض بالشاعرية والرمزية، كتبها الأسير الفلسطيني (باسم خندقي) من داخل سجون الاحتلال.

تدور الرواية حول رحلة إنسانية تنسج بين الواقع والخيال، يستخدم الكاتب أسلوبا سرديا يمزج فيه بين الأمل والمعاناة، وبين الحرية القابعة في الروح والقيد المفروض على الجسد. يطرح (خندقي) تساؤلات فلسفية عميقة حول الهوية والانتماء، والحب مستخدما لغة راقية تتضح بالشاعرية، لتكشف عن قدرة الإنسان على التحليق حتى من وراء الأسوار.

ملخص الرواية:

رواية "قناع بلون السماء" للكاتب الفلسطيني الأسير (باسم خندقجي) الصادرة عام 2023 عن دار الآداب، تعد عملاً أدبياً مميزاً يتناول قضايا الهوية والانتماء والصراع الفلسطيني من منظور فني فلسفي عميق.

تدور أحداث الرواية حول شخصية (نور الشهدي) وهو فلسطيني لاجئ يعيش في مخيم "بلاطة" قرب "نابلس"، نشأ في بيئة مقاومة ومليئة بالقهر والحرمان، يعمل باحثاً في الآثار، يحمل في داخله شغفاً بالتاريخ، وهو شاب ذو ملامح أوروبية يتقن اللغة العبرية بفضل دراسته الأكاديمية واحتكاكه بثقافة المحتل. أثناء زيارته إلى "يافا" المدينة الفلسطينية المحتلة التي تم تهويدها، يشتري معطفاً من أحد محلات الملابس المستعملة، فيكتشف داخل المعطف بطاقة هوية زرقاء تحمل اسم (أور شابييرا) وهو اسم لمستوطن إسرائيلي. هنا تبدأ حبكة الرواية الفعلية إذ يقرر (نور) انتحال شخصية (أور)، مستفيداً من مظهره الأوروبي وإتقانه للغة العبرية، ينظم (نور) إلى بعثة إسرائيلية للتحقيق الأثري تحت إشراف (د. أليعازر) الباحث في اللاهوت والتاريخ اليهودي، هدف (نور) الخفي هو الوصول إلى حقائق تاريخية بشأن شخصية (مريم المجدلية)، تلك المرأة الغامضة من زمن المسيح، والتي يرى فيها نموذجاً للمرأة المظلومة والمحرف تاريخها تماماً كما حُرف تاريخ فلسطين.

الرواية تدخل هنا في إطار "فلسفي رمزي"، فمريم المجدلية تصبح مرآة لفلسطين: جميلة، مقدسة، مطمورة، محرف عنها الكثير. كما نجد (نور) في رحلته هذه يعيش داخل شخصية زائفة، وحياتة مزدوجة، حيث أنه ينتقل بين قناع المحتل وحقيقة المقاوم، يعاني بين صراعات داخلية عميقة، فيطرح ويبدأ في مساءلة العديد من المفاهيم مثل: (الهوية)، (الانتماء) والحقيقة، ويتجلى هذا الصراع في أحاديثه مع صديقه الأسير (مراد) الذي يرمز إلى الضمير الوطني والهوية الأصلية، كذلك تنعكس

الملاحق

هذه الصراعات في علاقته (بسماء إسماعيل) الفتاة الفلسطينية من الداخل المحتل، التي تحمل بطاقة هوية إسرائيلية لكنها ترفض الاعتراف بها.

تنتهي الرواية بنبرة مأساوية رمزية، (نور) ينكشف ويتحول قناعه إلى عبء كبير ولكن في لحظة ينجح (نور) في دفن (أور شابيرا) داخله. وإحياء (نور الشهدي) الحقيقي من جديد وكأن القناع لم يكن سوى مرحلة وتجربة مؤلمة للوصول إلى ذاته الحقيقية.

الفهرس

إهداء.....	
1.....	مقدمة
6.....	الفصل الأول: الإطار النظري لمفهوم الهوية.
7.....	1. الخيال/ المصطلح والمفهوم:
7.....	1. ضبط المفاهيم.
7.....	أ. الخيال:
8.....	ب. التخيل:
8.....	ج. التخيل:
9.....	2. مفاهيم لمصطلح المتخيل.
13.....	3. علاقة المتخيل بالواقع.
14.....	4. أنواع المتخيلات.
17.....	II. الهوية/ المصطلح والمفهوم.
17.....	1. التعريفات اللغوية للهوية.
17.....	أ. تعريفها عند العرب.
20.....	ب. تعريفها عند الغربيين.
21.....	2. المفاهيم الاصطلاحية.
21.....	أ. الهوية في الفلسفة وارتباطها بالوجود.
25.....	ب. الهوية في علم النفس.
27.....	ج. الهوية في علم التاريخ.
28.....	د. الهوية في علم الاجتماع.
330.....	3. الأبعاد الأساسية للهوية.
30.....	أ. البعد الوطني.

31	ب. البعد الدّيني.....
32	ج. البعد الثقافي.....
34	الفصل الثّاني: تجلّيات صراع الهويّة.....
35	ا. صراع الهويّة مع الذات نفسها.....
35	1. انتحال الهويّة الجديدة.....
37	2. الهويّة الجديدة وتحديّ الذات.....
39	3. هيمنة الهويّة الأصليّة على الذات.....
43	II. صراع الهويّة مع الآخر.....
43	1. صراع الأنا مع الآخر.....
47	2. صراع آيلا مع سماء.....
49	3. صراع مراد مع المحتل.....
51	III. ملامح نزاع الهويّة.....
52	1. نضال مهدي في وجه الكيان الصّهيوني.....
53	2. صراع نور الهويّاتي.....
59	3. صراع الوجود والانتماء.....
35	IV. هويّة الرواية والسّارد.....
43	1. رصد تاريخ مريم المجدليّة.....
51	2. الرّؤى المتنوّعة لرمز مريم المجدليّة.....
63	3. تضارب هويّة الرواية والسّارد.....
66	خاتمة.....
69	قائمة المصادر والمراجع.....
75	الملاحق.....